SERIE CONNAISSANCE GENERALE

EDITION DU NOUVEAU MILLENNIUM

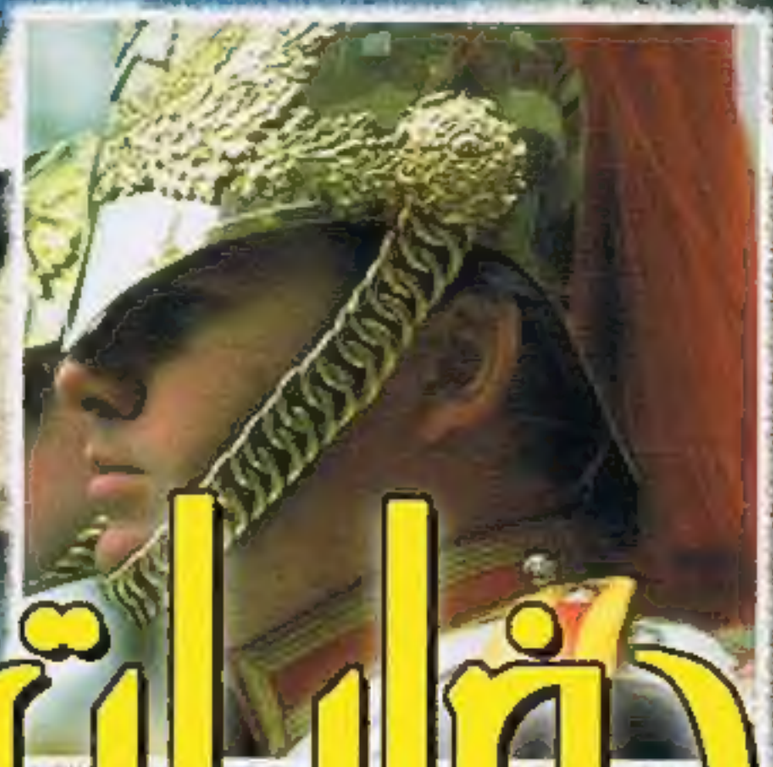

حضارات الشعوب الوسطى

LA CIVILISATION DES PEUPLES DU MOYEN AGE

سلسلة المعارف الشاملة

SERIE CONNAISSANCE GENERALE

© Edito Creps, 2001

جميع حقوق النشر والطبع والإقتباس محفوظة للناشر في العالم تحت طائلة الملاحقة الجزائية
Tous droits reservés dans le monde.
Reproduction même partielle est interdite

All rights reserved throughout the world.
No part of this publication may be reproduced in any form

موسوعة

المعارف الشاملة

المقـــدمـــة

تشكل «**الموسوعة العالمية الشاملة**» خطوة جريئة في عالم النشر العربي، فهي أولاً باكورة إنتاج «Edito Creps» التي تهدف إلى تزويد القارىء العربي بآخر المستجدات في عالم الفكر والفن والتكنولوجيا.

وتتوخى إدارة «Edito Creps» وفريق العمل، المكون من أكثر من ٤٠ اخصائي ومفكر وباحث ومترجم ومحرر، الذي يشرف على إصدار منشورات الدار، تقديم المعلومات للقارىء بأسلوب مبسَّط لا التباس فيه ولا تعقيد بحيث تصبح «**الموسوعة العالمية الشاملة**» رفيقة القارىء، مهما كان نوعه ومستواه الثقافي والفكري: فالتلميذ الباحث يجد فيها مبتغاه، وهاوي التاريخ أو الأدب أو الموسيقى أو الفن أو الفلسفة، يجد فيها ما يشبع رغباته كما يجد في هذه الموسوعة كل متتبع لآخر المعلومات والتطورات والابتكارات في مجالات **التكنولوجيا الحديثة، وعلوم الذرة، والفضاء، والأقمار الصناعية، والاتصالات السلكية واللاسلكية**، ما يروي عطشه في هذه الحقول.

حتى هُواة الفنون العسكرية والعسكريون لم تهملهم «**الموسوعة العالمية الشاملة**» إذ قدَّمت لهم كل ما يتعلق بهذه الفنون وتشعباتها.

وأفردت «**الموسوعة الشاملة**» مكانة خاصة للذين يهتمون بالبيئة ووسائل حمايتها من التلوث، فحاولت أن تقدّم لهم ما يرضي اهتمامهم ويدفعهم نحو المزيد من المواقف والتطلعات المستقبلية البناءة في حقل البيئة ومنع التلوث البيئي.

وتجد المرأة في «**الموسوعة العالمية الشاملة**» ما يروي غليلها في مجال الجمال والأناقة والطبخ الذي قدَّ منا لها فيه أشهى وأطيب المأكولات الرائجة في أنحاء مختلفة من العالم، مع الاهتمام بشكل خاص بالأطعمة السريعة الإعداد، المعتدلة الكلفة والصحية التي لا تسبب البدانة وتساعد في حصولها.

ولأن العائلة عزيزة على قلب كل عربي أصيل، فقد احتلت مكانة مميزة في موسوعتنا التي شملت معظم النواحي التربوية، الاجتماعية والصحية الخاصة بالعائلة.

إلاَّ أن أهم ما تمتاز به «**الموسوعة العالمية الشاملة**» فهو تركيزها على كل ما يتعلق بتراثنا العربي وتراث الشرق الذي يكون جزءاً من تاريخ الحضارات القديمة والحديثة والمعلومات الوافية عن الجغرافيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية وبحثت في قسم الفلسفة كل ما يتعلق بالفلاسفة العرب والآراء الفلسفية العربية والشرقية وغطت في أقسام عدة شؤون الأدب والفن والموسيقى والمسرح والسينما، لما لهذه المواضيع من أهمية في الحياة الاجتماعية في عالمنا العربي.

المشرف العام

يولاند بيروتي

EDITO CREPS
INTERNATIONAL

NEW YORK FAX: 001 - 1 - 212 - 4784192, 961 - 1 - 586207, 961 - 3 - 240824

فهرس المحتويات

● الإسلام يضعف في ظل العباسيين: ٨
● الغرب متدهور أيضاً: ٩
● أنظمة الحكم الإقطاعي: ١٠
شارلمان يصبح أمبراطوراً على الغرب: ١١
انشطار امبراطورية شارلمان: ١٤
النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلاجقة ... ١٥
القسطنطينية تستغيث بروما: ١٨
الحروب الصليبية ١٨
المغول: غزواتهم وانتصاراتهم. ٢٠
● المغول أيام هولاكو: ٢٣
المماليك يتصدُّون للمغول في معركة عين جالوت: ٢٦
تيمورلنك الطاغية المغولي: ٢٦
العثمانيون ٢٧
الفجر النَّوَر ٣٤
النهضة الأوروبية ٣٥
● عصر النهضة وعلم الاجتماع والاقتصاد: ٣٨
● انفصال الأراضي الواطئة عن الملكية المطلقة: ٣٩
● صراع البرلمان الإنكليزي مع الملكية المطلقة: ٤٢
● الدويلات الإيطالية في عصر النهضة: ٤٦
● إيڤان الثالث مؤسّس الدولة الروسية الحديثة: ٤٧
● ألمانيا منقسمة كثيرة الاضطرابات: ٥٠
● عصر الملكية العظمى في أوروبا: ٥١
المملكة البروسية ٥٤
● الثورة الفرنسية ١٧٨٩: ٥٥
● نابوليون بونابرت: ٦٢
● نابوليون قنصلاً أوّل من ١٧٩٩ إلى ١٨٠٤ ..... ٦٤
● نابوليون امبراطوراً من ١٨٠٤ إلى ١٨١٤: ٦٥
أوروبـــا بعد عام ١٨٢١ ..... ٦٧
● مؤتمر فيينا: ٦٨
● الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ٧١
● علاقات دول أوروبا بالشرق. المصالح الأوروبية في الدول العثمانية: ٧٣
الحرب العالمية الأولى ٧٤
أميركا: الاستقلال الأميركي ٧٧
● لمحة تاريخية عن أميركا: ٧٧
● الولايات المتحدة: ٧٨
● لمحة تاريخية عن تطور نظام الولايات المتحدة السياسي ٧٩
● القرن التاسع عشر ومسألة الرق في أميركا: ٨٨
● النضال مع إسبانيا سنة ١٨٩٨: ٩١
كنـدا ٩٣
● لمحة تاريخية: ٩٣

الحضارات

• الإسلام يضعف في ظل العباسيين:

بعد أبي العبّاس، انتقل محور الأهمية في الإسلام، عبر الصحراء، في دمشق إلى أرض الجزيرة وشيّد المنصور عاصمة جديدة لنفسه في بغداد بالقرب من خرائب العاصمة الساسانية القديمة طيشفون وأصبح الأتراك والفرس أمراء مع العرب سواء بسواء وأعيد تنظيم الجيش على النظم الساسانية ولم يعد للمدينة أو مكة أنئذ من أهميّة إلاّ كمركزين للحج يولي المؤمنون وجوههم شطرهما في الصلاة. لكن اللغة العربية استمرت في انتشارها وحلّت محل الرومية كلغة المتعلمين والمثقفين لأنها كانت ممتازة وكانت لغة القرآن.

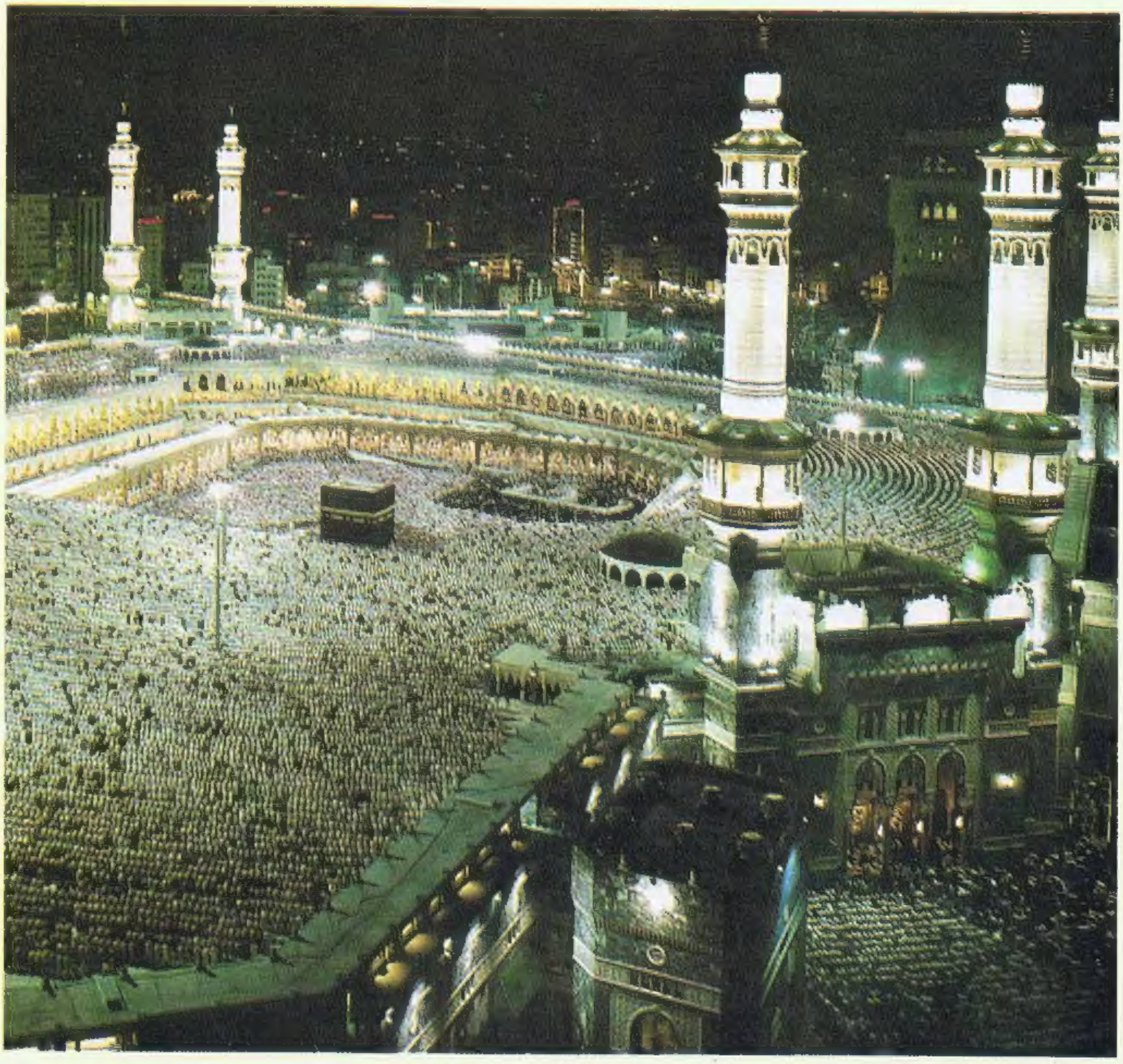

مكة المكرمة

الحضارات

وبعد موت هارون الرشيد هوت الأمبراطورية الإسلامية العظيمة في حمأة الحرب الأهلية والاضطرابات. وأنثال الترك من التركستان، بعد ذلك بمئتي سنة، جنوباً بقيادة آل سلجوق ولم يقهروا بغداد فحسب بل آسيا الصغرى كذلك. وكان هؤلاء مسلمين من الطراز البدائي فأحدثوا في قوة الإسلام انتعاشاً عظيماً وأداروا أذهان العالم الإسلامي من جديد صوب الجهاد ضد المسيحية.

● الغرب متدهور أيضاً:

سبق وتحدثنا عن الانهيار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي ألمّ بالنظام الأمبراطوري الروماني في الغرب. وعن الارتباك والظلمة اللذين أعقبا ذلك الانهيار في القرنين الخامس والسادس. ففي تلك المرحلة كافح كاسيودوراس وأمثاله في سبيل حفظ شعلة العلوم الإنسانية متقدة وسط هذه الارتباكات العاصفة. وكان بعض المغامرين الصغار أو الكبار يستولون على قلعة أو ناحية من الريف ويحكمون منطقة غير ثابتة الحدود حكماً غير مستقر. فكانت الجزر البريطانية مثلاً مقسّمة بين حشد كبير من الحكّام.

كذلك كان شأن معظم أقطار العالم الغربي: فكنت تجد أسقفاً هنا يتولى الملك، مثل غريغوري الكبير في روما. ودوق أو أمير هناك يحكم مجموعة من المدن. وكنت تجد بين

كنيسة القديس بطرس

الحضارات

أصبح قبر هادريان يعرف بعد أيام غريغوري الكبير باسم قلعة سانت انجيلو Saint Angelo أي حصن الملاك المقدس. لأنه عندما كان البابا غريغوري يعبر الجسر من فوق التيبر في طريقه إلى كنيسة القديس بطرس ليصلي لله طالباً رفع الوباء العظيم الذي كان يعيث في المدينة دماراً، طافت به رؤيا ملك عظيم واقف فوق كتلة الضريح الدكناء وهو يغمد سيفاً فعرف أن دعواته ستستجاب. وقد لعبت قلعة سانت أنجيلو دوراً عظيماً في الشؤون الرومانية أثناء ذلك العصر المضطرب.

الخرائب الهائلة في روما أسر نصف مستقلة لمغامرين شبه نبلاء يذود كل منهم عن حياضة ومعه أتباعه. وكان للبابا نوع من السيادة العامة هناك رغم أنه كان ينافسه عليها ويفوقه أحياناً «دوق روما» الذي حوّل المختلد العظيم في الكولوزيوم إلى حصن يملكه فرد وحُوّل كذلك إلى ملكية فردية قبر الأمبراطور هادريان. وكان المغامرون الذين استولوا على تلك المعاقل يقطعون هم وأنصارهم الطريق بعضهم على بعض ويتقاتلون ويتناوشون في الشوارع الخربة لمدينة كانت فيما مضى حاضرة لامبراطورية عظيمة.

كانت إسبانيا تعاني التمزق السياسي نفسه الذي تعانيه كل من إيطاليا وفرنسا وبريطانيا. وكان النزاع بين القرطاجي والروماني ما يزال مستمراً في أسبانيا متمثلاً بالعداء المرير بين أخلافهم وورثتهم من يهود ومسيحيين. حتى أن قوة الخليفة الجارفة ما أمامها على امتداد الساحل الأفريقي الشمالي إلى مضيق جبل طارق، وجدت في يهود إسبانيا أعواناً متأهبين لمعاونتها في غزوها لأوروبا.

هكذا عبر جيش عظيم من العرب والبربر، أي الشعوب المترحلة في الصحراء الأفريقية والأراضي الجبلية الداخلية التي اعتنقت الإسلام، عبر هذا الجيش البحر وهزم القوط الغربيين في معركة عظيمة سنة ٧١١م وأصبحت البلاد في قبضة أيديهم بعد بضع سنوات.

وما حلّت سنة ٧٢٠م حتى كان الإسلام قد بلغ جبال البيرينيه واندفع من حول نهايتها الشرقية إلى فرنسا، وانقضت فترة من الزمان لاح للناس أثناءها أن الدين الجديد أوشك أن يخضع بلاد الغال بالسهولة نفسها التي أخضع بها شبه الجزيرة الإسبانية. لكنه اصطدم بشيء صلب هو مملكة جديدة للفرنجة أخذت أجزاؤها تتماسك طوال قرنين في أرض الراين وشمال فرنسا.

• أنظمة الحكم الإقطاعي:

وإذا كانت لفظة نظام تعني الترتيب والتنظيم فإن نظام الإقطاع في أزهر عصوره كان أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية إذ لم يكن فيه إلاّ فوضى واضطراب وكان التباين والاختلاف العظيم ينتشر بين أشكاله في كل مكان.

نظام الإقطاع هذا كان يملأ أوروبا بشبكة من هذه الإقطاعات التي تتدرج إحداها فوق الأخرى بادئة بأقلها شأناً في القاع وهي أجر الفارس حتى الملك في القمة وهو مالك الأرض الأعلى أي الذي وهبه الله المملكة. هذا من الناحية النظرية أمّا في الواقع فنظام الإقطاع كان يقوم على التعاون الاختياري.

وأقامت بعض القبائل البربرية ممالك لها متنوعة على أنقاض الأمبراطورية. هذه الممالك هي: مملكة السويقي والقوط الغربيين في إسبانيا والقوط الشرقيين في إيطاليا ومملكة اللومبارد الإيطالية التي عقبت القوط بعد أن طردهم جستنيان وبعدّ أن عاث الوباء العظيم.

ونشأت مملكة الفرنجة وهي دولة بربرية أخرى في أول الأمر في بلجيكا ثم امتدت جنوباً حتى اللوار. لكنها أظهرت من القوة والتماسك ما يفوق كثيراً الممالك الأخرى فكانت أول دولة تخرج من غمرة الدمار العام ثم أصبحت في آخر الأمر حقيقة سياسية قوية متسعة الرقعة ونبعت منها دولتان عظيمتان في أوروبا العصرية: فرنسا والمبراطورية الألمانية. وكان مؤسّسها كلوڤيس (٤٨١ـ٥١٤م).

شارل مارتل قسم دولته بين ولديه، فاعتزل أحدهم الملك وترهّب تاركاً أخاه پيپين حاكماً وحيداً على الدولة. وهو الذي قضى نهائياً على آحفاد كلوڤيس. ولأن البابا كان بحاجة إلى سند يعينه قضى لصالح پيپين فانتخب

الحضارات

ملكاً بين جمع من نبلاء الفرنجة في العاصمة الميروفنجية سواسُون Soissons ومُسِح بالزيت المقدَّس وتوَّج سنة ٧٥١ ثم قوىَ ابنه شارلمان من أواصر التماسك بين البلاد الفرنجية والألمانية وظلَّت الدولة موحَّدة متماسكة حتى عهد حفيده لويس (٨٤٠) حيث انفصلت فرنسا وألمانيا إحداهما عن الأخرى من جديد ولم يكن ما فصل بين هذين الشعبين الفرنجيين فارقاً في الجنس أو المزاج بل فارقاً في اللغة والتقاليد.

وتمسَّك الحكام، في انكلترا والقارة الأوروبية، الذين أخذ نجمهم يعلوه بالمسيحية ويتخذونها قوة موحِّدة لتشد أجزاء فتوحاتهم بعضها إلى بعض فأصبحت المسيحية لواء يرفعه كل زعيم ينزع إلى العدوان.

وخلف پيبين الذي توفي سنة ٧٦٨ ولداه: شارل وأخوه فاقتسما مملكته، لكن أخا شارل توفي سنة ٧٧١ فانفرد شارل بالحكم (٧٧١-٨١٤) في مملكة الفرنجة النامية وعرف باسم شارل الكبير أو شارلمان.

استخدم شارلمان السيف والنار للتبشير بإنجيل المسيح لدى السكسون والبوهيميين، وتوَّغل شارلمان حتى الدانوب وحمل التعاليم نفسها وانحدر بها حتى سواحل الأدرياتيكي ودفع المسلمين خلف البيرينيه حتى برشلونة.

شارلمان يصبح أمبراطوراً على الغرب:

لقد أعيدت تقاليد القيصر الروماني إلى الحياة في أوروبا على يد شارلمان: فالأمبراطورية الرومانية قد ماتت وأخذت تتعفن، والأمبراطورية البيزنطية ممعنة في الاضمحلال وأوروبا بأكملها تتردى في درك من الجمود الفكري والفكر السياسي الخلاَّق شبه معدوم.

والمسيحية الرسمية تسدل الستار على تعاليم يسوع الناصري، أصبحت مشغولة بإحياء أمجاد الرومان وغدت تستغل إيمان بسطاء الناس وحاجاتهم للمضي قدماً في مشروعاتها وخططها وتشبثت بتقاليد الامبراطورية الرومانية وبفكرة كونها الطريق الطبيعي لوحدة أوروبا.

وفكرة الأمبراطورية لم تدر بخلد شارلمان فجأة بل بغاية البطء والتدرج فقد كان في بادىء الأمر مجرَّد حاكم على مملكة أبيه الفرنجية وكان منهمكاً بكل قواه في الكفاح ضد السكسون والباڤاريين والصقالبة في شرق فرنسا، ومع المسلمين في إسبانيا وفيما شبَّ في ممتلكاته نفسها من ضروب العصيان وضد لومبارديا في شمال إيطاليا حوالي سنة ٥٧٠ بعد الوباء العظيم وبعد خلع جستينيان لملوك القوط الشرقيين. وقد شكَّل اللومبارد على الدوام مصدر خطر وخوف للباباوات فابرمت ضدهم محالفة بين البابا وملك الفرنجة في عهد پيبين. ثم جاء شارلمان وأخضع لومبارديا خضوعاً تاماً سنة ٧٧٤ وأرسل حماه إلى أحد الأيرة وحمل فتوحاته إلى ما وراء الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا: إلى دالماسيا سنة ٧٧٦ وسنة ٧٨١ جعل ابنه پيپين، الذي لم يعش بعده، ينصَّب ملكاً على إيطاليا ويتوَّج في روما.

وسنة ٧٩٥ عقد البابا ليو الثالث العزم، منذ البداية، على جعل شارلمان امبراطوراً. فقد كان لبلاط بيزنطية حتى ذلك الحين شيء من السلطان غير المحدود على البابا. وكان الأباطرة الأقوياء من أمثال جستنيان يخيفون الباباوات ويجبرونهم على المثول إلى القسطنطينية، وكان الأباطرة الضعفاء يضايقونهم مضايقة غير ذات أثر. ولطالما خامرت قصر اللاتيران، قصر الباباوات الأوَّل في

كان يسمَّى هؤلاء السكسون والإنكليز الوثنيون بالڤيك - انجز Vik Ings - ومعناها رجال الخلجان أو الفيوردات لأنهم جاؤوا من الثنايا العميقة في الشاطىء الأسكندنافي. حضروا في سفن طويلة سوداء تسمَّى القوداس مستعملين الشراع استعمالاً طفيفاً. ولدينا معلومات مستفيضة عمَّا كانوا يرتكبونه في غاراتهم من المذابح والفظائع، وعن عدائهم للصليب والرهبان والراهبات إذ كان يبهجهم إحراق أديرة الرهبان والراهبات وذبح من بها من الأحياء.

الحضارات

الحروب التاريخية

روما قبل الڤاتيكان، فكرة الانفصال عن القسطنطينية انفصالاً علمانياً ودينياً. فإذا بالدولة الفرنجية وعلى رأسها شارلمان تشكل السند الذي لا بد منه إذا أرادوا تحدّي القسطنطينية.

أرسل البابا ليو الثالث إلى شارلمان عند توليه البابوية مفاتيح قبر القديس بطرس ولواءً، رمزاً لسيادته في روما بوصفه ملكاً لإيطاليا. وسرعان ما اضطر البابا إلى اللجوء إلى حامية لأنه كان مكروهاً في روما: حيث أسيئت معاملته أثناء مسيرة في أحد المواكب واضطر إلى الهروب إلى ألمانيا سنة ٧٩٩ لكن شارلمان أعاده إلى روما وردَّه إلى منصبه سنة ٨٠٠.

وفي عيد الميلاد في السنة نفسها (سنة ٨٠٠) بينما كان شارلمان ينهض من الصلاة في كنيسة القديس بطرس، وضع البابا، وكان قد جهَّز كل شيء، تاجاً على رأسه وحيَّاه قيصراً فضج الشعب بالاستحسان العظيم، لكن الأمبراطور الجديد لم تسرُّه فعلة البابا المفاجئة: إذ لم يكن يريد أن يجعله البابا امبراطوراً بل كان يجول في خاطره أن يتزوج من الأمبراطورة إيريني

لم تكن بيزنطيه في بادىء الأمر راغبة في الاعتراف بلقب شارلمان الأمبراطوري. ولكن سنة ٨١١ حلَّت بالامبراطورية البيزنطية كارثة عظيمة: فقد أغار عليها البلغار الوثنيون بقيادة أميرهم كروم (Krum) (سنة ٨٠٢ ـ ٨١٥) ودحروا وجيوش الامبراطور نقفور الذي أصبحت جمجمته كأساً لكروم. وفتح هؤلاء القوم القسم الأكبر من شبه جزيرة البلقان. فلم تبد بيزنطية بعد هذه الكارثة أي اعتراض على انبعاث الامبراطورية في الغرب واعترفت رسمياً سنة ٨١٢ بشارلمان امبراطوراً.

الحضارات

القراصنة

التي كانت تحكم القسطنطينية في ذلك الزمان، فيصبح بذلك عاهلاً على الامبراطوريتين الشرقية والغربية.

لكنه أصبح مضطراً لقبول اللقب وفق الطريقة التي رسمها ليو الثالث وبطريقة أغضبت القسطنطينية وأكدت انفصال روما عن الكنيسة البيزنطية.

وكان شارلمان رجلاً جم النشاط، يتحرك بسرعة. ولم تحل غرامياته العديدة دون قيامه بأعماله الحربية والسياسية التي لم تنقطع. وكانت له زوجات عديدات وخليلات كثيرات. وكان يكثر من مزاولة الرياضة، وكان مغرماً بالأبهة والحفلات الدينية وكان كريماً يجزل العطاء وكان متقد الذكاء متعدد النشاط. وكان له إلمام بالقراءة. ومن الراجح أنه كان أثناء تناوله الطعام يصغي إلى الموسيقى أو القراءة. وكانت نفسه تنطوي على احترام للعلم ورغبة صادقة في المعرفة وبذل قصارى جهده ليجتذب رجال العلم إلى بلاطه ومن بين الذين وفدوا عليه عالم انكليزي هو الكوين **Alcuin**.

وكان هؤلاء العلماء من رجال الكنيسة (الإكليروس) إذ لم يكن هناك أي علماء آخرين. لهذا كانوا يصبغون المعلومات التي يقدمونها لسيِّدهم بصبغة دينية.

وبسبب شدة قلقه وعدم استقراره وكثرة مشاغله لم يتسنى له تحضير خلفه. على إبنه أوصى ابنه وخليفته لويس الورع (٨١٤ ـ ٨٤٠) بأن يأخذ التاج من المذبح ويتوج نفسه بنفسه. لكن لويس الورع كان اتقى من أن يتمسك بهذه التعليمات عندما اعترض البابا.

وقد شجَّع شارلمان فن العمارة فاستحضر معماريين إيطاليين عديدين من رافنّا Ravenna خاصة، وبذل جهداً للنهوض بفن العمارة الرومانسكي

الحضارات

وأسّس عدداً من الكاتدرائيات ومدارس الأديرة وشجّع دراسة اللاتينية الكلاسيكية القديمة. وكان شارلمان هاوياً ممتازاً شديد الولع بموسيقى الكنيسة ولعله كان يتكلم اللاتينية الفرنسية مع أن الفرنجية كانت لغته العادية وقام بجمع مجموعة من الأغاني والأقاصيص الألمانية القديمة لكن خلفه لويس الورع أتلفها لطابعها الوثني.

تبادل شارلمان الرسائل مع هارون الرشيد الخليفة العباسي ببغداد. ويبدو أن مودته لم تتأثر قط بما لقبه العرب الأمويون في إسبانيا على يديه من شديد النكال. ويرى المؤرخ الكبير جيبون أن هذه المراسلات الملنية كانت تقوم على الغرور وأن مركزيهما المتباعدين لم يتركا أي مجال لاحتكاك المصالح. فالامبراطورية البيزنطية القائمة بينهما في الشرق والخلافة المستقلة في إسبانيا في الغرب والخطر المشترك من أتراك السهول العظيمة، كانت ثلاثة أسباب دعت شارلمان وهارون الرشيد إلى تبادل المودّة القلبية.

ويقول المؤرخ جيبون أن هارون الرشيد أرسل إلى شارلمان على يد سفرائه قسطاطاً فاخراً وساعة مائية وأفيالاً ومفاتيح الناووس المقدس. والهبة الأخيرة تشير إلى أن الخليفة العباسي كان يعتبر شارلمان، إلى حد ما، حامي المسيحيين والممتلكات المسيحية في مملكته.

انشطار امبراطورية شارلمان:

لم تعش امبراطورية شارلمان بعد ابنه وخليفته لويس الورع إذا انشطرت إلى أجزائها الرئيسية الأصيلة. فسكان بلاد الغال من الكلت والفرنجة ذوي الصبغة اللاتينية أخذوا يتميزون تحت اسم فرنسا، وإن كانت فرنسا تلك منقسمة إلى عدد من الدوقيات والإمارات انقساماً لم يجعل لها معه في معظم الوقت إلاّ وحدة اسمية، وشرعت الشعوب الناطقة بالألمانية بين نهر الراين وبين الصقالبة في الشرق تكوّن بالمثل صورة لألمانيا أشد من صورة فرنسا انقساماً وفي القرنين التاسع والعاشر، كانت للملك في فرنسا سلطة اسمية، فانحصر عزم إمارات بلاد الغال على مقاومة أي اندماج في أية امبراطورية يتسلط عليها حاكم ألماني أو يسودها البابا، فلم تزد فرنسا عن كونها رقعة شطرنج مكوّنة من نبلاء مستقلين أو يكادون. وكانت تلك الحقبة حقبة بناء قلاع وإقامة تحصينات، أي فترة ما يسمُّونه «بالحرب الخاصة» في كل أرجاء أوروبا.

ولم تكن حال روما بأفضل في القرن العاشر، فانحلال امبراطورية شارلمان ترك البابا دون حام له: تتهدده بيزنطية والعرب الذين استولوا على صقلية ويتحرّش به نبلاء روما الشرسون.

أخيراً لعب الكفاح بين الامبراطور والبابا على السيادة في الامبراطورية الرومانية المقدّسة، أي امبراطورية شارلمان، دوراً كبيراً في تاريخ الشطر

أقوى النبلاء الذين تحرشوا بالبابا امرأتان: تيودورا وماروزيا وهما أم وابنتها. فقد تعاقبتا على الاحتفاظ بقلعة سانت انجيلوا التي استولى عليها تيوفيلاكت زوج تيودورا النبيل كما استولى على معظم سلطة البابا الزمنية. وفاقت جرأة وخلاعة هاتين الامرأتين عشرات المرات الأمراء الآخرين. فقد قبضت ماروزيا على البابا يوحنا العاشر وسجنته سنة ٩٢٨ وسرعان ما توفي. ثم نصبت ابنها غير الشرعي على عرش البابوية باسم يوحنا الحادي عشر ومن بعده شغل كرسي القديس بطرس حفيدها يوحنا الثاني عشر. الذي جُرّد من منصبه على يد الأمبراطور الألماني الجديد أوتو الذي عبر جبال الألب وانحدر إلى إيطاليا ليتم تتويجه هناك سنة ٩٦٢..

سلالات الأباطرة في أوائل القرون الوسطى: وهم ثلاث:

- **السكسونية:** من أوتو الأول ٩٦٢ إلى هنري الثاني ١٠٢٤.
- **الساليانيّة:** من كونراد الثاني إلى هنري الخامس وتنتهي قرابة ١١٢٥.
- **أسرة هونشتاوفن:** من كونراد الثالث إلى فردريك الثاني وتنتهي سنة ١٢٥٠.
- **أخيراً أسرة هابسبرغ:** تبتدىء برودولف الأوّل سنة ١٢٧٣ وتستمر حتى ١٩١٨.

النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلاجقة

الباكر من القرون الوسطى، لكن دهاء وحمق قصر اللاتيران الذي ضاهي البلاطات المعاصرة له لم يكن هو الوحيد الذي أثر في تاريخ المسيحية: فهناك رجال ونساء كان لهم أثرهم العميق في هذه الدنيا وحافظوا على روح يسوع الناصري التي بقيت حية في لباب المسيحية.

النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلاجقة

فيما كانت الامبراطورية الرومانية المقدسة تتمزّق بين شعوب فرنسا وانكلترا ويترك تمزقها أثره البالغ في مدنيّة أوروبا الغربية، تعرّضت هي والامبراطورية البيزنطية لهجوم مثلث الجوانب من العرب ومن سكان دول الشمال ومن شعوب تركية زحفت نحو الغرب عبر جنوب روسيا وآسيا الوسطى عن طريق أرمينيا وامبراطورية بغداد.

فبعد أن أسقط العباسيون خلافة الأمويين، لم يعد العالم الإسلامي متّحداً: فأسبانيا تحت حكم خليفة أموي منفصل، وشمال أفريقيا خاضع بالاسم للعباسيين لأنه في حقيقته كان مستقلاً إذ أصبحت مصر سنة ٩٦٩ دولة منفصلة لها خليفة شيعي خاص بها هو رجل أدّعى الانتساب إلى علي وفاطمة وأسّس الخلافة الفاطمية. هؤلاء الفاطميون ذوو العلم الأخضر كانوا متعصبين بالمقارنة مع العباسيين وقد فعلوا الكثير لتشويه ما بين الإسلام والمسيحية من صلات وطنية. فاستولوا على بيت المقدّس وتدخلوا في زيارة المسيحيين للقبر المقدّس. وكان هناك من ناحية أخرى تقلّص في الأملاك العباسية فقد نشأت مملكة شيعية مقرُّها فارس. وكان أهم فتح قام به العرب في القرن التاسع هو صقلية، لكنه لم يتم اجتياحاً على الطراز القديم الرائع أي في سنة أو ما يقاربها، بل تم إخضاعها بعد جهد جهيد استمر قرن كامل من الزمان، ومع نكسات كثيرة في كفة الحرب. وكان عرب إسبانيا يتنازعون في صقلية مع عرب أفريقيا. وكان العرب في إسبانيا ينهزمون ويتخلون عن أرضها أمام نهضة جديدة بذلها المسيحيون. ورغم ذلك كانت الأمبراطورية البيزنطية وعالم المسيحية الغربية من الضعف في البحر المتوسط بحيث استطاع المغيرون والقراصنة العرب من شمال أفريقيا أن يُغيروا على جنوب إيطاليا والجزر اليونانية دون أن يجرؤ أحد على تحديهم.

وكان الإنكليز والسكسون والقوت قد غزوا معظم ما يشكل الآن بريطانيا في القرنين الخامس والسادس وجاء في أعقابهم في القرنين الثامن والتاسع الدانمركيون وهم موجة ثانية من نفس الشعب تقريباً. وسنة ١٠١٦ حكم انكلترا ملك دانيماركي، هو كانوت الكبير، ولم يقتصر ملكه على انكلترا بل تعدّاها إلى الدانيمارك والنرويج. وكان رعاياه يمخرون البحر بسفنهم إلى إيسلندا وجرينلندة وربما إلى القارة الأمريكية. وجاء وقت بدت في الأفق فيه إبان حكم كانوت وأبنائه بوادر احتمال إنشاء اتحاد عظيم بين أهل الشمال.

وأنثالت موجة ثالثة من نفس الشعب إلى انكلترا، من دولة النورمان في فرنسا، وأصبح وليم دوق نورماندي وليم الفاتح في التاريخ الإنكليزي (سنة ١٠٦٦).

وتكاد هذه الشعوب تكوّن شعباً واحداً فهي موجات من أرومة نوردية واحدة. وهي لم تتجه غرباً فحسب بل شرقاً كذلك. فالقوط اتجهوا من البلطيق إلى البحر الأسود وتفرعوا إلى شرقيين وغربيين وانتهوا آخر الأمر إلى تكوين مملكة قوط شرقية في إيطاليا ودويلات قوط غربية في إسبانيا وكانت لأهل الشمال، في القرن التاسع، حركة ثانية عبر روسيا في الوقت الذي كانت فيه مؤسّساتهم في انكلترا ودوقيتهم في نورماندي قد أخذت تظهر إلى عالم الوجود.

وعام ٨٥٠م تقريباً نصب روريك أحد أهل الشمال نفسه حاكماً على نوفيجورود واستولى خليفته الدوق أوليخ على مدينة كييف ووضع بذلك أسس روسيا الحديثة، وسرعان ما قدّرت القسطنطينية ما لدى الفيك انجز الروس من صفات حربية وكان الروم يسمونهم القارانجيين وبعد غزو

النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلاجقة

لوحة تمثل معركة بحرية

النورمانديين لانكلترا سنة ١٠٦٦ دُفع بعدد من الدانماركيين والإنكليز إلى المنفى فلحقوا بهؤلاء القارنجيين الروس لأنهم لم يجدوا فوارق تذكر في اللغة والعادات ولا ما يحول دون اختلاطهم بعضهم ببعض.

وكان النورمانديون النازحون من نورماندي يكتشفون في الوقت نفسه طريقهم إلى البحر المتوسط من الغرب. فهبطوه في البداية مرتزقة، ثم مغيرين لحسابهم الخاص. على أن انتقالهم لم يكن بطريق البحر بل في شراذم متناثرة بطريق البر: فقد اخترقوا أرض الراين وإيطاليا بحثاً عن الخدمة الحربية والأسلاب أو كحُجاج إذ شهد القرنين التاسع والعاشر إقبالاً شديداً على الحج إلى الأراضي المقدسة.

وحين بلغ هؤلاء النورمانديون مبلغ القوة تنبَّهوا لأنفسهم ولصلاتهم وبأسهم فأرغموا امبراطور الشرق والبابا على إبرام معاهدة ضدهم كانت ضعيفة وغير فعَّالة سنة ١٠٥٣م. ثم هزموا البابا وأسروه. وثبتوا أنفسهم في كالابريا وجنوب إيطاليا وانتزعوا صقلية من العرب بين ١٠٦٠ و١٠٩٠. وهدَّدوا الامبراطورية البيزنطية نفسها (١٠٨١) تحت إمرة روبرت جويسكارد الذي هبط إيطاليا مغامراً وبدأ حياته قاطعاً للطرق في كالابريا وكان جيشه يضم كتيبة من الصقليين المسلمين فعبر به البحر من برنديزي إلى إيبروس وألقى الحصار على مدينة دورازو البيزنطية المنيعة. ثم تمكن سنة ١٠٨٤ من محاصرة روما ونهبها. حدثت في القرن الثاني عشر ثلاث هجمات نورماندية على الدولة البيزنطية، إحداها على يد ابن روبرت جويسكارد والأخريان من صقلية مباشرة بطريق البحر ولكن لم يقيض للعرب ولا للنورمانديين أن يدقوا باب الامبراطورية العجوز في بيزنطيه أو الامبراطورية المقدسة في الغرب بمثل تلك القوة الآتية من المراكز الطورانية في آسيا.

فمنذ أيام پيبين الأوَّل كانت الدولة الفرنجية ومعها دول ألمانيا في نزاع مع البلغار والمجريين الأتراك المغيرين من الشرق على امتداد أراضي الحدود الشرقية بأسرها. وقد صدَّهم شارلمان وأنزل بهم النكال وأسَّس لنفسه نوعاً من السيادة العليا على منطقة امتدت شرقاً حتى جبال الكربات. لكن هذه الشعوب عادت في فترة الضعف التي

النورمانديون والعرب والمجريون والأتراك السلاجقة

تلت وفاة شارلمان ـ وكانت قد تخالطت وتسمّت باسم الهنغاريين ـ فاستردت بقيادة المجريين حريتها كاملة غير منقوصة وراحت تُغير كل عام غارات تصل أحياناً إلى نهر الراين.

هذه الاضطرابات دفعت بالبلغار جنوباً فوّطدوا أقدامهم بين الدانوب والقسطنطينية تحت إمرة كروم. والبلغار شعب تركي الأصل أقاموا على الوثنية جيشاً بعد استقرارهم الأول في بلغاريا. وقد أولم ملكهم بوريس الولائم لمبعوثين من المسلمين وفكر في اعتناق الإسلام لكنه آخر الأمر تزوّج أميرة بيزنطية وسلّم نفسه وشعبه للعقيدة المسيحية.

لكن البلغار والهنغاريين ليسوا آخر الشعوب الذين تحرّكوا باتجاه الغرب، فقد اندفع الخزر من خلفهم، والخزر مثل البلغار والهنغاريين شعب تركي اختلطت به نسبة عظيمة جداً من اليهود المطرودين من القسطنطينية واحتذبوهم إلى دينهم. وإلى هؤلاء تنسب مستوطنات اليهود العظيمة في بولندة وروسيا. ثم جاء في أعقاب الخزر قوم هم الباتشيناق غلبوهم، وهم شعب تركي متوحش نسمع عنهم للمرّة الأولى في القرن التاسع.

وبينما كانت كل هذه الشعوب تسير غرباً. لا بد من التذكير بسكان الأقاليم الروسية الجنوبية وبغدو أهل الشمال ورواحهم بين البلطيق والبحر الأسود، ويتوثق صلاتهم بالمهاجرين الأتراك. ولا يغيب عن بالنا أيضاً عدد الصقالبة الضخم هناك الذين استوطنوا تلك المناطق الخصبة المضطربة والمحرومة من كل قانون.

أخيراً يجب أن نتناول بالبحث القبائل التركية التي كانت تحت حكم العشيرة السلجوقية. فقد انطلق هؤلاء السلاجقة، في القرن الحادي عشر بقوة لا تقاوم. وفي مجموعة من الجيوش

غضب المهاجرين الأتراك

الحروب الصليبية

المؤتمرة بأوامر أخوني، وأطبقوا على الحطام المتداعي للامبراطورية الإسلامية.

وكان الخليفة في بغداد مجرّد شخص يدين بمنصبه لحراس قصره الأتراك، وقامت إلى الشرق من خلافته في فارس وإلى الغرب منها في فلسطين وسوريا ومصر طوائف شيعية متزندقة. ولأن الأتراك السلاجقة كانوا سنيين يأخذون بالعقيدة السلفية فقد أطبقوا على الحكام الشيعيين ومغتصبي السلطان وغلبوهم وأقاموا أنفسهم حماة للخليفة البغدادي ونقلوا لأنفسهم سلطة «محافظ القصر» الزمنية.

ثم انتزعوا أرمينيا من يد الروم في زمن مبكر جداً ونتج عن غزو أرمينيا أنهم داروا من الشمال الشرقي حول حاجز قيليقيا الجبلي الذي طالما صدّ جيوش المسلمين، وما لبث الأتراك تحت قيادة ألب أرسلان الذي وحّد بيده كل قوّة السلجوق، أن حطموا الجيش البيزنطي تحطيماً تاماً في موقعه «ما نزيكرت»، ثم استقر السلاجقة في قونية، أي ما هو الآن بلاد الأناضول ولم يمض زمن طويل حتى آلت إليهم قلعة نيقيا المقابلة للعاصمة.

القسطنطينية تستغيث بروما:

سنة ١٠٤٣ حدثت غارات روسية بحرية على القسطنطينية وسنة ١٠٨٢ حدث هجوم من النورمانديين على الامبراطورية البيزنطية من الغرب ثم جاء من الشرق سنة ١٠٧١ ذلك التهديد الخطير الناتج عن تقدم الأتراك السريع في تلك البلاد التي طال بها العهد بأيدي بيزنطية. فإذا بذلك يشكل نذيراً نهائياً بكارثة قاضية. لذلك اتخذ الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع، وبدافع من هذه الأخطار التي تناوشته من كل جانب، خطوة بدت له ولزوماً ذات أهمية سياسية قصوى: فلعالم اليوناني تطلع إلى أخيه اللاتيني، والتمس ميخائيل السابع المساعدة من البابا غريغوري السابع. وما لبث خلفه اليكسيوس كومنيوس أن كرّر ذلك الرجاء على البابا أربان الثاني بمزيد من الإلحاح.

هذه الاستغاثة بدت لمستشاري روما فرصة نادرة لتأكيد رئاسة البابا على العالم بأسره، على أن النزاع على مسألة «التعيينات» حال بين غريغوري السابع وبين الاستجابة الفعّالة لأوّل استصراخ جاءه من بيزنطية. لكن خليفته أربان الثاني استمسك بالفرصة، حين جاءته رسالة اليكسيوس، لضم كل الأفكار والقوة في أوروبا الغربية في تيار واحد من حيث الحميّة والهدف: فقد كان يرجو القضاء على الحروب الخاصة السائدة في أوروبا وتحويل قوة النورمانديين الهائلة نحو بسط سلطات الكنيسة اللاتينية على سوريا وفلسطين ومصر.

الحروب الصليبية

اختلطت الحماسة المتأججة في نفوس العربيين بعناصر أكثر اتضاعاً فالكنيسة اللاتينية خططت لإخضاع الكنيسة البيزنطية والحلول محلّها، وغريزة النهب لدى النورمانديين الذين كانوا يمزقون إيطاليا إرباً سرعان ما حوّلت وجهتها إلى عالم مغانم جديد أوفر ثراء.

كانت أوّل القوات التي سارت شرقاً جماهير غفيرة من أناس غير منظمين أكثر منها جيوشاً، وقد حاولوا أن يتخذوا من وادي الدانوب طريقاً لهم لينحرفوا جنوباً نحو القسطنطينية ولما أصبحت تلك الجماهير الغفيرة، التي لا قائد لها بين ظهراني الأجانب لم يدركوا أنهم لم يصلوا بعد إلى بلاد المسلمين. وخرجوا عن الاعتدال في بلاد المجر مما استثار المجريين للقضاء عليهم فاعملوا فيهم السيف ذبحاً وتقتيلاً. وبدأ حشد ثلث من الجماهير المتجهة نحو الشرق عمله مذبحة كبيرة أعملها في يهود أرض الراين. ثم تفرّق هذا الحشد في هنغاريا واخترق حشدان آخران أوروبا ووصلا إلى القسطنطينية. وكم كانت دهشة الأمبراطور أليكسيوس وجزعه بالغين حين عرف أنهم نهبوا وانتهكوا الحرمات على طول الطريق فحملهم آخر الأمر بالسفن عبر البوسفور حيث

الحروب الصليبية

هزمهم السلاجقة وذبحوهم على بكرة أبيهم سنة ١٠٩٦.

لكن هذا الظهور الأوروبي التعس وغير الموفق، أعقبه سنة ١٠٩٧ مجيء القوات المنظمة المخصصة للحملة الصليبية الأولى. فقد جاؤوا من طرق شتى: فرنسا والنورماندي وفلاندز وانكلتر وجنوب إيطاليا وصقلية.

كان النورمانديون عصب هذه الحملة وعزيمتها فعبروا البوسفور واستولوا على نيقيا التي اختطفها اليكسيوس منهم قبل أن ينهبوها. وواصلوا سيرهم على الطريق نفسها التي سلكها الاسكندر مخترقين بوابة قيليقيا، تاركين الأتراك في قونيا غير مهزومين، مجتازين ميدان معركة أبسوس ومواصلين السير إلى أنطاكية التي استولوا عليها بعد حصار قارب السنة هازمين جيشاً عظيماً جاء من الموصل لنجدتها. وظل قسم كبير من الصليبيين في أنطاكية وتقدّمت قوة أصغر بقيادة جودفرُي البويُّون (نسبة إلى Bouillon في بلجيكا) نحو بيت المقدس. وبعد حصار دام أكثر من شهر استولوا على المدينة كلياً، في ١٥ تموز ١٠٩٩.

ثم شهدت سنة ١١٤٧ حملة صليبية أخرى اشترك فيها كل من الأمبراطور كونراد الثالث والملك لويس الفرنسي.

لكنها كانت حملة أكثر فخامة وأقل نجاحاً وحماسة من سابقتها. وكان الدافع إلى إرسالها سقوط الرها في يد المسلمين سنة ١١٤٤. وكان فيها فصيلة ضخمة من الألمان عمدت،

وسنة ١١٦٩ أصبح مغامر كردي اسمه صلاح الدين حاكماً على مصر، حيث قامت ثورة سنية أسقطت الزندقة الشيعية التي أسسّها الفاطميون فوحّد صلاح الدين جهود مصر وبغداد ودعا إلى «الجهاد»، أو الحرب المقدسة أو الحرب الصليبية المضادة واستنهض جميع المسلمين على المسيحيين. وقد أثار هذا الجهاد في ديار الإسلام من المشاعر القوية ما يداني ما أثارته الحرب الصليبية الأولى في عالم المسيحية وتغيّر الحال واستعيد بيت المقدس سنة ١١٨٧.

بدل الاتجاه إلى الأراضي المقدّسة إلى مهاجمة وإخضاع شعب الوند شرقي نهر الإلب الذي كان ما يزال وثنياً. وقد وافق البابا على ذلك واعتبره من الحروب الصليبية. وفي نفس الإطار كان الاستيلاء على لشبونه وتأسيس الفصائل الإنكليزية والفلمنكية لمملكة البرتغال المسيحية.

هكذا حصلت الحرب الصليبية الثالثة سنة ١١٨٩. وكانت حملة فاخرة وضع خطتها الامبراطور فريدريك الأوّل الشهير باسم فريدريك بربروسا بالاشتراك مع ملك فرنسا وملك انكلترا الذي كان يملك أجمل المقاطعات الفرنسية آنذاك. ولعبت البابوية دوراً ثانوياً في هذه الحملة. وكانت هذه الحملة أشد الحملات دمائة وفروسية ورومانسية: فقد خففت روح الشهامة والفروسية التي تحلى بها كل من صلاح الدين وريتشارد الأوّل (قلب الأسد) (١١٨٩ ـ ١١٩٩) من حدّة التعصب الديني. هذه الحملة أنقذت إمارة أنطاكية لكنها أخفقت في استرداد بيت المقدس مع أن المسيحيين ظلوا مسيطرين على سواحل فلسطين.

ولم تصل الحملة الصليبية الرابعة إلى الأرض المقدّسة بتاتاً. فقد خرجت من البندقية سنة ١٢٠٢ واستولت على زارا وعسكرت في القسطنطينية سنة ١٢٠٣ ونهبت المدينة سنة ١٢٠٤: كانت الحملة هجوماً مشتركاً على الأمبراطورية البيزنطية واستولت البندقية على شطر كبير من شواطىء الامبراطورية وجزرها وأقيم أمير لاتيني هو بلدوين الفلاندري امبراطوراً في القسطنطينية وأعلنت عودة الوحدة بين الكنيستين اللاتينية واليونانية وحكم أباطرة لاتين بوصفهم غزاة في القسطنطينية من ١٢٠٤ إلى ١٢٦١.

وسنة ١٢١٢ حدثت «حملة صليبية للأطفال». إذ لم يعد الهياج الديني يؤثر في البالغين بل انتشر بين الأطفال في جنوبي فرنسا وفي حوض نهر الرون. فسار جمهور مكوّن من آلاف كثيرة من الغلمان الفرنسيين إلى مرسيليا وهناك أغواهم تجار الرقيق بالنزول إلى السفن وباعوهم في مصر عبيداً وسار أطفال الراين على أقدامهم باتجاه إيطاليا حيث تشتتوا وهلك الكثيرين منهم في الطريق.

واستغل البابا أنوسنت الثالث هذه الحادثة المميزة لصالحه فقال: «حتى الأطفال أنفسهم يلبسوننا ثوب الخزي والعار». وحاول أن يستثير الحماسة

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

لوحة تمثل الحروب البحرية

لحملة صليبية خامسة الهدف منها غزو مصر لأن بيت المقدس كان في ذلك الحين في قبضة السلطان المصري. فعادت البقية الباقية من هذه الحملة مجللّة بالخزي بعد جلاء غير مشرّف عن مدينة دمياط سنة ١٢٢١.

وقاربت الحملة السادسة سنة ١٢٢٨ درجة السخف: فقد أقسم الامبراطور فريديرك الثاني على القيام بحملة صليبية ثم نكث بعهده وشرع في الحملة شروعاً زائفاً ثم عاد أدراجه. ويرجّح أنه كان يتبرم من نذر التزم به تجاه البابا بالقيام بحملة صليبية ليضمن نصرة هذا الأخير له في انتخابه امبراطوراً.

وسنة ١٢٤٤ فقد المسيحيون بيت المقدس مرة ثانية إذ استرجعه منهم سلطان مصر بسهولة حين حاولوا تدبير مؤامرة ضده. ونتج عن ذلك حرباً صليبية سابعة هي حرب القديس لويس ملك فرنسا (لويس التاسع) الذي أخذ في مصر أسيراً ثم افتدي سنة ١٢٥٠.

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

كان المغول، حتى أواسط القرن الثاني عشر للميلاد، قبائل متفرقة تعيش في سهول آسيا الوسطى من الزراعة وتربية المواشي، وكثيراً ما كانت هذه القبائل تتناحر في ما بينها بدافع الاستئثار بالسلطة أو بسبب التنافس على المراعي الخصبة.

وكان يسوكاي رئيس أسرة بورجقين التابعة لقبيلة قبات، محارباً شجاعاً وقائداً بارعاً فانتصر في إحدى معاركه على زعيم تتري يدعى تيموجين وقتله، ولدى عودته من المعركة فوجيء بحدث سعيد في منزله. فقد انجبت زوجته له مولوداً ذكراً فسمّاه تيموجين تيمناً بانتصاره على الزعيم التتري الذي يحمل هذا الاسم.

وتحالف يسوكاي مع زعيم قبيلة كرايت المدعو طغرل لمحاربة التتر الذين كانوا أشد قبائل المغول وحشية وشراسة. لكن التتر نجحوا في نصب كمين ليسوكاي وقتلوه بواسطة السم. وكان ابنه البكر تيموجين يوم مقتل أبيه

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

لوحة تمثل جيش السلاجقة في مضيق البوسفور

في الثانية عشرة من عمره فاستولى أعمامه على إرث أبيه وتركوه مع أمه وسائر إخوته في فقر مدقع.

وعندما شبَّ تيموجين تحالف مع قبيلة كرايت وزعميها طغرل كما فعل والده من قبل، وساعده هذا الأخير على استرداد إرث أبيه ورفع من شأنه بين القبائل المغولية المتحالفة، ونظراً لذكاء تيموجين وشجاعته، نادى به زعماء تلك القبائل خاناً على المغول وأطلقوا عليه اسم جنكيزخان وأقسموا على طاعته والولاء له.

في تلك الأثناء طلب امبراطور بكين مساعدة طغرل وحليفه جنكزخان لرد خطر التتر عن حدود مملكته. فوجد جنكيزخان في ذلك فرصة للانتقام من قتلة أبيه وتحقق له النصر سنة ١٢٠٢ واعمل السيف في التتر حتى ذبح القسم الأكبر منهم وحوَّل الذين بقوا منهم على قيد الحياة إلى عبيد. وقد كشفت هذه المعركة عمَّا في نفس الزعيم المغولي من تعطش غريزي للقتل الجماعي وسفك الدماء دون رحمة أو رأفة بضحاياه.

وقد وفرت أسباب عديدة النجاح لجنكيزخان: قوة شخصيته وجاذبيتها، تأهبه الدائم للانقضاض والفتك وحسن اختياره لقادة جيشه الأربعة جب، سوبوتاي، جيلمي وشقيقه قسار.

وسنة ١٢٠٣ انقلب جنكيزخان على حليفه وحليف أبيه من قبله، طغرل، واستولى على منطقة كرايت بكاملها ثم أخضع سائر القبائل المغولية لسيطرته.

وكان الجيش المغولي الذي اكتسح آسيا وبلغ أواسط أوروبا يتبع تنظيماً بسيطاً بعيداً عن التعقيد. وكان هذا التنظيم يقوم على وحدات تتألف من عشرات ومئات وألوف العساكر. وكان رواج الأنباء حول سرعة التعبئة لدى

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

المغول وشدّتهم التي لا تقهر، قد ملأ قلوب ضحاياهم من الشعوب رعباً مدمّراً: فهم يباغتون أعداءهم قبل أن تتاح لأولئك الفرصة للاستعداد والمقاومة فكان على الشعوب التي تتعرض للغزو المغولي أن تذعن وتستسلم دون قيد أو شرط وإلاّ تعرضت للإبادة الجماعية والنهب الشامل.

وسنة ١٢٠٧ أصبح بيرق جنكيزخان يرفرف على منغوليا بأسرها. وفي بداية ١٢١٥ اندفع بجيوشه نحو الممالك الصينية الشمالية، فتهاوت تحت ضرباته الواحدة تلو الأخرى ثم هاجم مدينة بكين واحتلها وبعد استيلائه على كنوزها الثمينة أمر بإحراقها وتدمير قصورها وقتل سكانها.

بعد احتلال الصين الشمالية اندفعت جحافل المغول، تحمل الموت والخراب باتجاه الشرق، فاحتل جب امبراطورية قاراقيتاي في تركستان وتوجه بعد ذلك نحو خوارزم، وكانت أقوى الدول الإسلامية، ورغم الدفاع عن جرجان عاصمة خوارزم، ومقاومة سكان المدينة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، التي اتسمت بالبطولة والأقدام والتي دامت سبعة شهور كاملة فقد دخل المغول المدينة وقتلوا جميع المدافعين عنها ونهبوا جميع ما تحتويه قصورها ومنازلها ونقلوا قرابة ألف من الصنّاع والحرفيين إلى المناطق الشرقية وسبوا الأطفال والنساء. وهدم المغول السد الذي يرد مياه نهر جيحون عن المدينة فانسابت السيول إلى داخلها فتهدم ما بقي من الأبنية واستمرّت المدينة زمناً طويلاً مغمورة بمياه النهر ومن نجا من السكان من سيوف المغول جرفته السيول وأهلك بين الأنقاض.

ثم توجّه القائد المغولي تولوي نحود مدينة مرو، عاصمة خراسان، فأصابها ما أصاب جرجان ويذكر ابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ» أن عدد قتلى مدينة مرو بلغ سبعمائة ألف قتيل.

وتعرّضت سائر المدن الإسلامية الكبرى، تباعاً لهمجية المغول فدمّروا بخارى وسمرقند وقتلوا سكانهما واستولوا على أفغانستان وفي مدينة فراة الأفغانية استمرّ ذبح السكان أسبوعاً كاملاً فلم يبق في المدينة أي أثر يدل على الحياة.

وفي الوقت الذي كان فيه جيوش المغول تتقدم وتجتاح المناطق الإسلامية الواقعة إلى الشرق من العراق، كان اثنان من قواد جنكيزخان يتوغلان في شمال شرق آسيا الوسطى في المناطق المحيطة ببحر قزوين، فاحتلا إقليم جورجيا وانتصروا على الروس بالقرب من بحر آزوف ثم اتحدرا جنوباً نحو البحر الأسود. وقد استعمل المغول في هجومهم على الشرق الإسلامي أساليب حربية بالغة الوحشية.

وفي آب سنة ١٢٢٧ مات جنكيزخان بعدما أذاق شعوب آسيا أفظع أنواع الطغيان القائم على القتل الجماعي وتخريب العمران وإحراق الزرع والضرع وامتدت امبراطوريته من بكين في الصين حتى شواطىء نهر الفولغا في روسيا.

وأهمّ ما خلّفه جنكيزخان هو النظام الإداري الذي طبقه على امبراطوريته المترامية الأطراف. وبفضل هذا النظام الدقيق والصارم نسي بعض معاصريه مذابح الشعوب ودمار الأمصار وأشادوا به.

هذا «السلام المغولي» ساد بفضل قانون خاص وضعه جنكيزخان ضمّنه مجموعة من الآداب والتقاليد المغولية بالإضافة إلى ما اكتسبه من خبرات خلال حياته الحافلة بالحروب والكوارث. هذا القانون يدعى «الياسا» وهو يحدّد علاقة الحاكم بالمحكوم وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض وعلاقة الفرد بالمجتمع. ومن مواد ونصوص هذا القانون ما يتعلّق بتنظيم البريد حتى يعرف الحاكم أحوال مملكته بسرعة، وبالمساواة بين الأفراد والقادة وبين

وكانوا عندما يزحفون نحو مدينة من المدن، يدفعون بالأسرى المسلمين الذين تجمعوا لديهم من غزوات سابقة نحو المقدمة، فيتعرض الأسرى للقتل من المدافعين ومن المهاجمين في آن، فمن سلم من القتل من أهل بخارى أسرهم المغول وأفادوا منهم في حصار سمرقند واستخدموا أسرى سمرقند في حصار جرجان وهكذا.

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

رغم ما اشتهر به جنكيزخان من الهمجية والعنف، فإن عدداً من المؤرخين، يوردون بعض الصفات الطيبة التي كان الطاغية يتحلى بها: منها، نفوره الشديد من الخونة والغادرين بسادتهم والمتنكرين لأوطانهم طمعاً باكتساب رضاه، فجزاء هؤلاء عنده الإعدام فوراً. وتعهده بحماية الضعفاء والتزامه الدفاع عنهم طالما هم في كنفه، وميله للإفادة من تجارب الشعوب المتحضرة وعلومها.

سنة ١٢٢٩ احتفل خليفته، أي أحد أنبائه بذكرى أبيه الراحل وفق التقاليد المغولية: قدّم الطعام عن روح جنكيزخان لمدّة ثلاثة أيام، وجرى اختيار أربعين فتاة من أجمل بنات الأسر النبيلة فارتدين أفخر الثياب وتزينّ بأثمن ما لديهن من الحلي والمجوهرات وقُدّمن إلى الموت لكي يقمن بخدمة جنكيزخان في الآخرة.

الأغنياء والفقراء وبسطاء الناس، أمام العدالة. وقد جعل عقوبة السرقة والفحش الاعدام وأنكر عصيان الإبن لأبيه وأمه ومخالفة الأخ الأصغر للأخ الأكبر ونهى عن الإسراف في شرب الخمر.

ونهض أبناء جنكيزخان وأحفاده بإدارة شؤون الامبراطورية واقتسام ممالك وأقاليم وتوسّعوا في الغزو حتى بلغوا قلب أوروبا، في بولندا والمجر ووصلوا إلى بغداد ودمشق على عهد طاغية مغولي آخر هو «هولاكو».

● المغول أيام هولاكو:

توقف الزحف المغولي المتجه غرباً، بقيادة جنكيزخان، عند التخوم العراقية، وبعد وفاته تولى أبناؤه الثلاثة حكم الامبراطورية الشاسعة واستمروا في شن الحروب والغزوات الماحقة ضد شعوب آسيا وأوروبا الشرقية وفق النهج التدميري الذي اختطه جنكيزخان.

وسنة ١٢٥١ تولى العرش المغولي منكوخان، حفيد جنكيزخان فتمكّن من توحيد المقاطعات المغولية وإخضاع القبائل المتمرّدة ومن ثم الانفراد بالحكم وهو في الثالثة والأربعين من العمر. وكان لويس التاسع، ملك فرنسا، في تلك الأثناء، يتأهب للقيام بحملة صليبية جديدة تستهدف مصر وقد حاول التنسيق مع حاكم بلاد فارس المغولي ومع حاكم الإمارات الصليبية في السواحل الفلسطينية واللبنانية والشامية للقيام بعمل عسكري مشترك والاطباق على العالم الإسلامي، من الشرق والغرب، في وقت واحد.

ولم يكن المغول بحاجة لمن يشجعهم على غزو الأقاليم الإسلامية، فقد عهد منكوخان إلى أخيه الأصغر هولاكو إدارة بلاد فارس، والاستعداد للقضاء نهائياً على الجماعات الإسماعيلية المتمركزة في حصونها المنيعة، التي سبق واستعصت على جنكيزخان لدى هجومه الصاعق من قبل، ثم مواصلة الزحف نحو العراق وسوريا ومصر والقضاء على الخلافة الإسلامية في بغداد.

وكانت الحركة الاسماعيلية المتفرّعة من الدعوة الفاطمية، والمعروفة باسم الاسماعيلية النزارية قد بلغت على عهد زعيمها الحسن الصباح ومن جاء بعده درجة خطيرة من القوة والانتشار فهددت جميع الممالك والإمارات الإسلامية بسبب ما اتبعته من أساليب رهيبة في نشر الرعب ومن براعة في اجتذاب الأنصار والمؤيدين من عامة الناس ومن اليافعين بشكل خاص.

ويبدو أنهم أحسّوا بالخطر الذي يتهددهم من قبل المغول، فسعوا لتكوين جبهة عريضة من الشعوب الإسلامية لمقاومة الزحف المغولي القادم من الشرق. ولم تقتصر مساعيهم على اجتذاب الأمراء المسلمين فحسب، بل امتدت إلى أوروبا أيضاً: فقد أوفدوا سنة ١٢٣٨ رسُلاً إلى كل في انكلترا وفرنسا لإقناع ملكيهما بأن الخطر المغولي لا يهدد الشرق الإسلامي وحده وإنما قد يصل هذا الزحف إلى أوروبا نفسها. لكن ملكي البلدين لم يستجيبا لطلب الاسماعيليين.

وانطلقت عساكر المغول نحو القلاع الاسماعيلية وتمكنت من احتلالها الواحدة تلو الأخرى، بعد تطويقها ومحاصرتها. وكانت قلعة الموت مركز الزعامة الاسماعيلية وأمنع قلاعهم. وفتك المغول بالاسماعيليين فتكاً ذريعاً فلم ينج منهم سوى إعداد

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

قلعة حلب

قليلة اعتصمت ببعض جبال فارس المنيعة أو لجأت إلى بعض المناطق الشامية.

هكذا نجح هولاكو في القضاء على حركة إسلامية اختلف المؤرخون في شأنها وعجز القادة المسلمون، طيلة قرنين من الزمن عن القضاء عليها، وكذلك السلاطين السلاجقة الأشداء. وبعد انتهائه من خطر الاسماعيليين وتأمينه سلامة طرق مواصلاته في بلاد فارس بدأ هولاكو بالزحف نحو بغداد عاصمة الخلافة العباسية.

وأقام هولاكو معسكره في ضاحية تقع شرقي بغداد، فخرج قسم من الجيش العباسي خارج الأسوار ليمنع احتشاد قوات العدو، فأسرع المغول إلى هدم السدود والجسور وغمرت المياه الأراضي الواقعة وراء جيش الخليفة، ثم شنوا هجوماً عنيفاً على المسلمين الذين انهارت مقاومتهم بسرعة وقتلوا منهم اثني عشر ألفاً، وهرب الناجون نحو بلاد الشام. وتقدّمت الجيوش المغولية وأطبقت على بغداد من جميع الجهات، فتبعثرت قوات الخليفة وأخذت جموعها تحاول الفرار من المدينة، لكن المغول كانوا بالمرصاد وكلّما خرج فوج من الجند أجهزوا عليه بكامله ذبحاً أو إغراقاً في مياه دجلة.

ولم يجد المستعصم بدّاً من الخروج إلى هولاكو والاستسلام له، فطلب الطاغية المغولي منه أن يصدر أوامره إلى جميع السكان بالخروج من المدينة وأن يعلنوا الإذعان التام برفع أيديهم إلى أعلى. لكن كان مصير من استجاب لطلب الخليفة القتل بسيوف المغول.

ومع دخول عسكر المغول إلى بغداد بدأت موجة رهيبة من المجازر الجماعية قل مثيلها حتى في أشد الحروب همجيّة: فقد أبيحت المدينة وسكانها للغزاة سبعة أيام بلياليها. وكان كلّما حلّ التعب بالسفاحين يرتاحون بعض الوقت ثم يستأنفون القتل والتدمير. وبلغ عدد القتلى قرابة

المغول: غزواتهم وانتصاراتهم

مئة ألف. ثم أمر هولاكو بإحراق بغداد بجميع قصورها ومكتباتها العامة. وكان سقوط المدينة في ٧ صفر ٦٥٨هـ أي شباط سنة ١٢٥٨م.

وإتماماً لتنفيذ الخطة التي رسمها شقيقه منكو، تقدَّم هولاكو بجيشه نحو منطقة الجزيرة في شمالي سوريا واستولى على نصيبين وحرَّان والرها ومنبج، ولدى وصوله إلى ضواحي حلب، خرجت حامية المدينة بقيادة توران شاه الأيوبي لملاقاته، فتظاهر المغول بالتراجع أمام المسلمين حتى إذا خرج معظم المدافعين عن المدينة خارج الأسوار، ارتد المغول عليهم وفتكوا بهم، وما لبثت المدينة أن سقطت في أيدي المغول فجرى لسكانها ما سبق وجرى لسكان بغداد ولسائر المدن التي ابتليت بالطغيان المغولي. وصمدت قلعة سيف الدولة، وسط المدينة، شهراً كاملاً ثم استسلمت. ومن نجا من سكان حلب من سيوف البرابرة أُسِرَ وبيع في أسواق قيليقيا وفي الموانىء الصليبية الواقعة على شواطىء المتوسط الشرقية.

زاد سقوط حلب، التي امتنعت على الروم وعلى الصليبيين في حالة الخوف لدى المسلمين، واضطربوا اضطراباً شديداً، وهرب حاكم دمشق الأيوبي الناصر يوسف إلى مصر. ووجد سكان دمشق أنه من الأفضل لهم ولمدينتهم أن يعلنوا الاستسلام للقائد المغولي كتبغا الذي عيَّنه هولاكو قائداً لقواته في بلاد الشام، فأوفدوا وفداً من أعيان المدينة حاملاً الهدايا والتحف، قدَّم مفاتيح بوابات المدينة إلى القائد المغولي. فسلمت دمشق من الدمار وسلم أهلها من الموت. ثم واصل المغول احتلال سائر المناطق الشامية

المغول يحرقون حلب

المماليك يتصدُّون للمغول

وقتلوا حامية نابلس لأنها قاومت وأدركوا مدينة غزة واستولوا عليها دون مقاومة.

المماليك يتصدُّون للمغول في معركة عين جالوت

في تلك الأثناء، انضم إلى حاكم مصر المملوكي، السلطان قطز سائر أمراء المماليك الذين كانوا قد هربوا إلى الشام من قبل بسبب الخصومات الداخلية. وعمَّ الخوف سكان مصر بعد توارد الأنباء المحزنة والمخيفة عن مصير المدن الإسلامية الكبرى، فأخذ المغاربة الذين جاؤوا إلى مصر، على عهد الفاطميين يعودون إلى بلادهم ولجأ قسم من سكان مصر إلى اليمن هرباً من مذابح المغول، بينما عاش الباقون في ترقب وخوف يتوقعون وصول المغول بين يوم وآخر.

وفي مطلع شهر كانون الثاني عام ١٢٦٠ أرسل هولاكو رسله إلى مصر يطلبون إلى السلطان قطز التسليم.

لكن السلطان قطز، رغم هول الأنباء الواردة إلى مصر، عن بأس المغول ووحشيتهم في معاملة البلدان التي يدخلون إليها بالقوة، أصرَّ على لقاء الجيش المغولي مهما كانت النتائج.

وزحف قطز بقواته إلى فلسطين بعدما حصل على موافقة الأمراء الفرنج بالسماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم، وبشراء ما تحتاجه من مؤن. وفي شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ، أي في سبتمبر سنة ١٢٦٠م، وصل الجيش الإسلامي إلى وادي بيسان وأقام معسكره في قرية تدعى عين جالوت.

ودارت رحى معركة هائلة صدقت فيها عزائم المسلمين وألهب الإيمان حماستهم فاستبسلوا في القتال حتى لاحت بشائر النصر واستبد الخوف بعساكر المغول وبدأوا يفرُّون من المعركة باتجاه الشام. واستمر كتبغا يقاتل ببسالة حتى لقي مصرعه على يد الأمير جمال الدين ياقوت الشمسي وانتهت المركة في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ، أي في أيلول سنة ١٢٦٠م.

هكذا قضت معركة عين جالوت على أسطورة «الجيش المغولي الذي لا يقهر» وتعرض المغول، منذ انطلاق جحافلهم من أعماق آسيا بقيادة جنكيزخان لهزيمة حاسمة على يد المسلمين. وبلغت أنباء معركة عين جالوت دمشق وحلب وسائر المدن السورية فانتفضت الجماهير من سباتها وخوفها وثارت على المغول وأنزلت بكل من ساعدهم العقاب المحق.

لكن هولاكو صُعب عليه ما سمعه من انتصار المسلمين على جيشه ومقتل قائده المفضل كتبغا، فوجَّه حملة انتقامية على حلب احتلَّت المدينة وقتلت الأبرياء ونهبتها. لكن الجيش المغولي انهزم في مدينة حمص هزيمة منكرة في شهر كانون الأوَّل ١٢٦٠م فارتدت فلوله إلى ما وراء نهر الفرات.

تيمورلنك الطاغية المغولي

ولد تيمورلنك أو تيمور الأعرج سنة ١٣٣٦ في بلدة صغيرة تقع إلى الجنوب من مدينة سمرقند تدعى كيتش، والده كان أمير طاراغاي وكان حاكماً لتلك البلدة. وقد ادَّعى أمير طاراغاي أنه من سلالةٍ جنكيزخان وكان تيمورلنك بعد بروز نجمه في عالم الغزو والطغيان يردد دائماً هذا الزعم ويلحُّ عليه.

كانت الامبراطورية المغولية الكبيرة قد تمزَّقت إمارات وقطاعات صغيرة، بعد أن تمكنت الشعوب التي خضعت لنير الاحتلال المغولي من نيل حريتها والقضاء على النفوذ المغولي فوق أراضيها.

ونشأ تيمورلنك في وسط الفوضى التي تتخبط فيها الأقاليم المغولية وسرعان ما برزت مطامعه التوسعية وجنح إلى التسلط والاستبداد فبدأ بالاستيلاء على ما حوله من إمارات، تارة بالسيف وتارة بالغدر، غير عابىء بروابط القرابة أو بروابط الجوار.

هكذا تمكن بواسطة قوته الجامحة وخداعه المتقن من تأسيس مملكة

العثمـانيون

مغولية قوية في فترة قصيرة من الزمن. وأعلن نفسه ملكاً عليها وهو في الخامسة والثلاثين من العمر. وبعدما وطّد دعائم حكمه في آسيا الوسطى اتخذ من مدينة بلخ عاصمة له وانطلق في غزواته واضعاً نصب عينيه استعادة أمجاد الامبراطورية المغولية واحتلال العالم الإسلامي من جديد.

وكانت بلاد الشام خاضعة لحكم المماليك. وكانت دولة المماليك في نهاية القرن الرابع عشر للميلاد، أي بداية القرن التاسع للهجرة تعاني من التفكك والضعف بسبب التنافس على السلطة من جهة وبسبب تمرد الحاكم في بعض الأقاليم الشامية على السلطة المركزية في القاهرة من جهة أخرى.

فوجد تيمورلنك، بعد سيطرته على بلاد ما بين النهرين، أن الفرصة ملائمة لإعادة السيطرة المغولية على سوريا بعد اندحار الجيوش المغولية في معركة عين جالوت، وكانت فريسته الأولى مدينة حلب التي أبيحت للنهب بعد احتلالها طوال ثلاثة أيام.

واصل تيمورلنك زحفه نحو الجنوب فدخل حماه ثم حمص ثم بعلبك وسط مناظر مروعة من السفك والتخريب والتدمير والعبث والنهب والمصادرة واستباحة الحرمات بما لم يعهد الناس مثله.

ولدى وصول المغول إلى ضواحي دمشق اشتبك معهم الجنود المصريون في معارك محلية، صمد فيها المصريون، ثم بدأت المفاوضات بين الفريقين لإعلان دمشق مدينة مفتوحة وتجنيبها ما تعرضت له سائر المدن من قتل ودمار. وشارك ابن خلدون مع الوفد الدمشقي في مفاوضات الصلح مع تيمورلنك.

لكن «الأمان» الذي حصل عليه الوفد الدمشقي من تيمورلنك لم يؤدي إلى إنقاذ عاصمة الأمويين من لعنة الطاغية الدموي.

وبعد ما أقام تيمورلنك فترة وجيزة في دمشق، وحصل من بعض علمائها على «فتوى» بشرعية غزواته وفتوحاته البربرية، توجّه بجيشه شرقاً مصطحباً معه، بالقوة، جميع من كان قد بقي في المدينة من معماريين وحرفيين وصناع مهرة ونقلوا جميعاً إلى مدينة سمرقند للعمل هناك في بناء القصور وزخرفتها وتزيينها.

ولم يكتف تيمورلنك بما ألحقه من دمار بالحواضر الإسلامية في الأقاليم العربية بل انتقل بجيوشه شمالاً نحو آسيا الصغرى حيث أقام الأتراك العثمانيون دولتهم الجديدة متخذين من مدينة أنقرة عاصمة لهم، ولم تستطع العاصمة التركية الصمود طويلاً أمام الجيش المغولي رغم استبسال الأتراك في القتال دفاعاً عن مدينتهم، فاقتحمها العساكر المغول واستباحوها وفتكوا بسكانها بوحشية فاقت ما سبق وارتكبوه في غيرها من المدن الإسلامية، ووقع السلطان التركي بيازيد الأول في قبضة تيمورلنك سنة ١٤٠٢ فسجنه في قفص حديدي حيث لقي حتفه بعد أشهر قليلة.

وعاد تيمورلنك بعد جولته التدميرية تلك إلى عاصمة ملكه سمرقند وراح يتأهب ويعد العدّة لغزو الصين، لكن المنية عاجلته في ١٩ شباط سنة ١٤٠٥م وكانت مدينة سمرقند قد بلغت على عهده شأواً رفيعاً من العمران الأنيق والزخرفة الإسلامية الرفيعة بفضل ما نقل إليها من معماريين وفنيين من مختلف البلدان التي احتلّها وخصوصاً من دمشق كما ذكرنا سابقاً.

بعد وفاة تيمورلنك ولّي الحكم ابنه واستمر فيه حتى سنة ١٤٤٧م وبوفاته تعرضت الامبراطورية إلى الانهيار ثم إلى الاندثار نهائياً.

العثمـانيون

الأتراك العثمانيون فئة صغيرة من اللاجئين فرُّوا نحو الجنوب الغربي أمام غزوة جنكيزخان الأولى لبلاد التركستان الغربية، فقد قطعوا الطريق المديد من آسيا الوسطى واخترقوا الفيافي والجبال ومرُّوا بأقوام غريبين عنهم علّهم يعثرون على أرض جديدة يستطيعون أن يستقروا فيها. وأخيراً عثروا على مستقر لهم وعلى جيران من ذوي قرباهم وممن يشاكلونهم في الطبيعة والمشرب على هضاب آسيا الصغرى قرب الأتراك السلجوقيين. والقطر الذي استقروا فيه هو بلاد الأناضول الذي أصبح غالبة سكانه أتراكاً اعتنقوا الإسلام ديناً، وعاشوا مع

العثمـانيون

النجف . . تراث إسلامي

نسبة من الروم واليهود والأرمن.

وازداد الأتراك أهمية بطريقة تدريجية إلى أن آلت إليهم السيادة على الإمارات الصغيرة التي تمزّقت إليها الامبراطورية السلجوقية. كما ظلّت علاقاتهم مع امبراطورية القسطنطينية المتقلّصة علاقات عداء يشوبها شيء من التسامح. صحيح أنهم لَمْ يقوموا بأي هجوم على البوسفور، ولكنهم اتخذوا موطئاً لأقدامهم في أوروبا على الدردنيل، يشقون طريقهم متوغلين في مقدونيا وأيبروس وأليريا ويوغوسلافيا وبلغاريا.

وما لبث الأمراء العثمانيون أن وطدوا شيئاً فشيئاً أركان امبراطورية امتدت من جبال طوروس شرقاً حتى حدود هنغاريا ورومانيا غرباً.

وأصبحت أدرنة كبرى مدائنهم وأحاطوا من كل صوب بامبراطورية القسطنطينية المتقلصة. وفي ذلك الزمان لم تكن القسطنطينية هي حصن أوروبا المنيع ودعامتها، بل كانت الدعامة هي المجرّ الذي استوطنها شعب تركي مسيحي دافع عن أوروبا ضد الأتراك المسلمين.

وكانت العلاقات بين السلاطين العثمانيين والأباطرة فريدة من نوعها في تاريخ الدولة الإسلامية والمسيحية. فقد أقحم الأتراك أنفسهم في المنازعات العائلية وخلافات الأسرة المالكة في العاصمة الأمبراطورية. وكانت تربطهم بالعائلات الحاكمة وشائج رحم وقربى. وكثيراً ما كانوا يقدمون الجنود للدفاع عن القسطنطينية أو يستأجرون أحياناً فريقاً من جنود حاميتها لمساعدتهم في حملاتهم المتنوعة. وبلغ الأمر بأحد أبناء الأباطرة ورجال السياسة البيزنطيين أن رافق الجيوش التركية في ميادين القتال.

وكان البيزنطي يجد التفاوض مع الباشا العثماني أيسر من التفاوض مع البابا. وظل الأتراك والبيزنطيون أعواماً طوالاً يتزاوجون ويتآخون معاً في التصيد بمياه التيارات الملتوية للدبلوماسية والمؤامرات: فالعثمانيون جعلوا البلغار والصرب يتحرّشون بالأمبراطور البيزنطي في أوروبا. وبالمقابل أثار الأمبراطور الأمراء الآسيويين على السلطان.

لكن القسطنطينية سقطت آخر الأمر بيد المسلمين الأتراك سنة ١٤٥٣م إبان حكم السلطان محمد الثاني: فقد هاجمها من الجانب الأوروبي بقوة هائلة من المدفعية وقتل الامبراطور البيزنطي وكثر النهب والذبح ونهبت كنوز كنيسة آياصوفيا العظيمة التي بناها جوستينان الكبير سنة ٥٣٢م وحوّلت فوراً إلى مسجد.

العثمـانيون

كان آخر الخلفاء العباسيين يعيش في مصر برعاية سلطان المماليك ذلك أن الخلافة الفاطمية أصبحت في ذمة التاريخ: فاشترى سليم لقب الخلافة من الخليفة العباسي الأخير المنتكس واستولى على الراية المقدسة وغيرها من المخلفات النبوية وأصبح بذلك السلطان العثماني وخليفة المسلمين كلّهم.

كنيسة .

ولم يقتنع محمّد الثاني بفتح القسطنطينية بل شخص ببصره إلى روما واستولى على مدينة أوترنتو الإيطالية ونهبها. وكان شبه الجزيرة منقسماً على نفسه. والراجح أن ما أعدّه من عدّة قوية لفتحها كان سيكلل بالنجاح لو لم توافيه المنية عام ١٤٧١م. واشتبك أبناؤه من بعده بنزاع قتل فيه الأخ أخاه. وفي عهد خلفه بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢) انتقلت رحى الحرب إلى بولندة وفتحت معظم بلاد اليونان. ووسّع ابن بايزيد سليم (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) الدولة العثمانية بضم أرمينيا وفتح مصر. وحلف سليماً ابنه سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ففتح في الشرق بغداد وفي الغرب معظم بلاد المجر وكاد يستولي على فيينا وكانت المجر قد صمدت أمام السلاطين ثلاثة قرون كاملة، لكن الكارثة التي أحاقت بهم في موهاكس (١٥٢٦) وقُتِل فيها ملك المجر، ألقت بتلك البلاد صريعة تحت قدمي فاتحها. كذلك استولت عماراته البحرية على بلاد الجزائر، وأوقعت بالبنادقة هزائم كثيرة وكان في أثناء معظم حروبه مع الامبراطورية متحالفاً مع الفرنسيين بلغت الدولة العثمانية في عهده أوج عظمتها.

وظلت الامبراطورية العثمانية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر دولة من أعظم دول الغرب وأقواها إن لم نقل أعظمها على الإطلاق: فقد بلغت مساحتها بضعة ملايين من الكيلومترات المربعة وكانت موارد ميزانيتها أعظم وأثبت من موارد أية دولة أوروبية أخرى، بما في ذلك إسبانيا ومعادن الذهب فيها. وكانت إدارتها الحكومية منظمة تنظيماً محكماً وتهدف إلى توفير الخير العام. وكانت تثق بولاء شعبها وإخلاصه لها، فشعبها يعتبر الطاعة والنظام من أرفع الفضائل

العثمـانيون

التي يتحلى بها المرء. وكان جيشها أحسن الجيوش تدريباً ومدفعيتها أحسن مدفعية تملكها أية دولة وأسطولها يسيطر على البحر الأبيض المتوسط كله. هكذا فرض سلاطينها على الدول الأوروبية أن تحسب للامبراطورية العثمانية حساباً.

يكتنف الغموض تاريخ نشأة الأتراك الذين أسّسوا امبراطورية كهذه وتاريخ قدومهم من أواسط آسيا إلى بلاد الأناضول عند منتصف القرن الثالث عشر ودخولهم في خدمة السلاجقة، ولكننا نعرف أن مؤسّسهم كان عثمان بن أرطغرل (١٢٨٨ ـ ١٣٢٦) وأن الامبراطورية عُرفت باسمه وأنها عاشت قرابة ستمئة سنة واعتلى عرشها ستة وثلاثون سلطانا.

أما فيما يتعلق باعتناق العثمانيين الإسلام ديناً وكيف تم ذلك وفي أية حقبة فإن المؤرخين متباينون في الرأي: البعض منهم لا يجد إثباتاً تاريخياً على أن القبيلة التي ينتمي إليها آل عثمان كانت إسلامية والبعض الآخر يعتبر أن القبائل النازحة إلى بر الأناضول قد اعتنقت الإسلام بعد أن استوطنت أراض واقعة ضمن الدولة السلجوقية، ويظن البعض أن الإسلام انتشر بين القبائل التركية في فترة من الزمن تتراوح بين سنة ٨٢٠ وسنة ١٠٠٠ ميلادية أي عندما حصل الاتصال بين العرب والأتراك.

وكانت تسيطر على منطقة الشرق الأوسط، في مستهل القرن السادس عشر دول ثلاث هي: الدولة العثمانية، الدولة الإيرانية ودولة المماليك في مصر وسوريا. الدولة الإيرانية كانت آخذة بالتوسع بقيادة السلطان الصفوي شاه اسماعيل، وكان هناك عوامل سياسية وجغرافية مختلفة أدّت إلى نشوب الحرب مراراً بين الأتراك والفرس منها الصراع الديني بين الشيعة والسنة. فإيران كانت بلداً شيعياً، وكان شاه اسماعيل يتبع سياسة شيعية عنيفة إذ جعل المذهب الشيعي دين الدولة الرسمي وعقد، سنة ١٥١٤ معاهدة مع المماليك كانت نتيجتها أن قطع هؤلاء علاقاتهم الدبلوماسية مع السلطان سليم.

وكان السلطان سليم يعتبر نفسه حامي السنة، فراح يعمل السيف في ألوف من الشيعة في أنحاء سلطنته. ثم جرَّد سنة ١٥١٤ حملة عسكرية ضد إيران وهزم الجيش الإيراني في سهل جالديران Ghalderan الواقع بين بحيرة أورميا وتبريز، فاسفر هذا الانتصار العسكري عن ضم أناطوليا الشرقية والجزء الشمالي من العراق وكردستان إلى الامبراطورية العثمانية.

بعد ذلك بات هم السلطان سليم القضاء على المماليك، وكانت دولتهم قد وهنت من جرّاء الحروب التي كانت تشنها، خاصة ضد المغول. وفي أواخر سنة ١٥١٦م سار السلطان سليم على رأس جيش كبير نحو سوريا. وفي الوقت نفسه غادر السلطان قانصوه الغوري القاهرة على رأس جيش قوي واتجه نحو شمالي سوريا، وفي ٢٤ آب سنة ١٥١٦ التقى الجيشان في سهل مرج دابق شمالي حلب فكان النصر حليف الجيش العثماني، مع أن المعركة لم تدم سوى ساعات قليلة أي من شروق الشمس حتى العصر وقتل السلطان قانصوه الغوري في ساحة المعركة.

وكانت نار المدفعية التركية سبباً في الذعر الذي حلَّ بين صفوف الفرسان في جيش المماليك فولّوا الإدبار. وسقطت مدينة حماة في ٢٠ أيلول، وحمص في ٢٢ أيلول، ودمشق في ٩ تشرين الأول، وفي ٢٢ كانون الثاني سنة ١٥١٧، كانت الجيوش العثمانية قد اجتازت صحراء سيناء وهي في طريقها إلى القاهرة، فاشتبك الأتراك مع المماليك في الريدانية، وكان النصر الحاسم فيها حليف الأتراك. وفي ١٧ نيسان سنة ١٥١٧ وقعت القاهرة في قبضة الجيش التركي. ولاقى طومان باي، آخر السلاطين المماليك، حتفه بيد سيَّاف السلطان سليم، وأصبحت مصر جزءاً من الامبراطورية العثمانية وزالت دولة المماليك التي حكمت مصر والبلدان العربية في الشرق الأدنى منذ عام ١٢٥٠.

ولم يحاول الأتراك تتريك الأعراق البشرية التي دخلت في نطاق امبراطوريتهم، وكان العرب أكثرها عدداً. فقد ظل الأتراك، في الواقع، غرباء في المناطق العربية التي أصبحت جزءاً من امبرارطوريتهم، والذين توطنوا منهم في الولايات العربية كانوا قلة أغلبهم من الموظفين الذين كانت ترسلهم الحكومة التركية إلى الأقطار

العثمـانيون

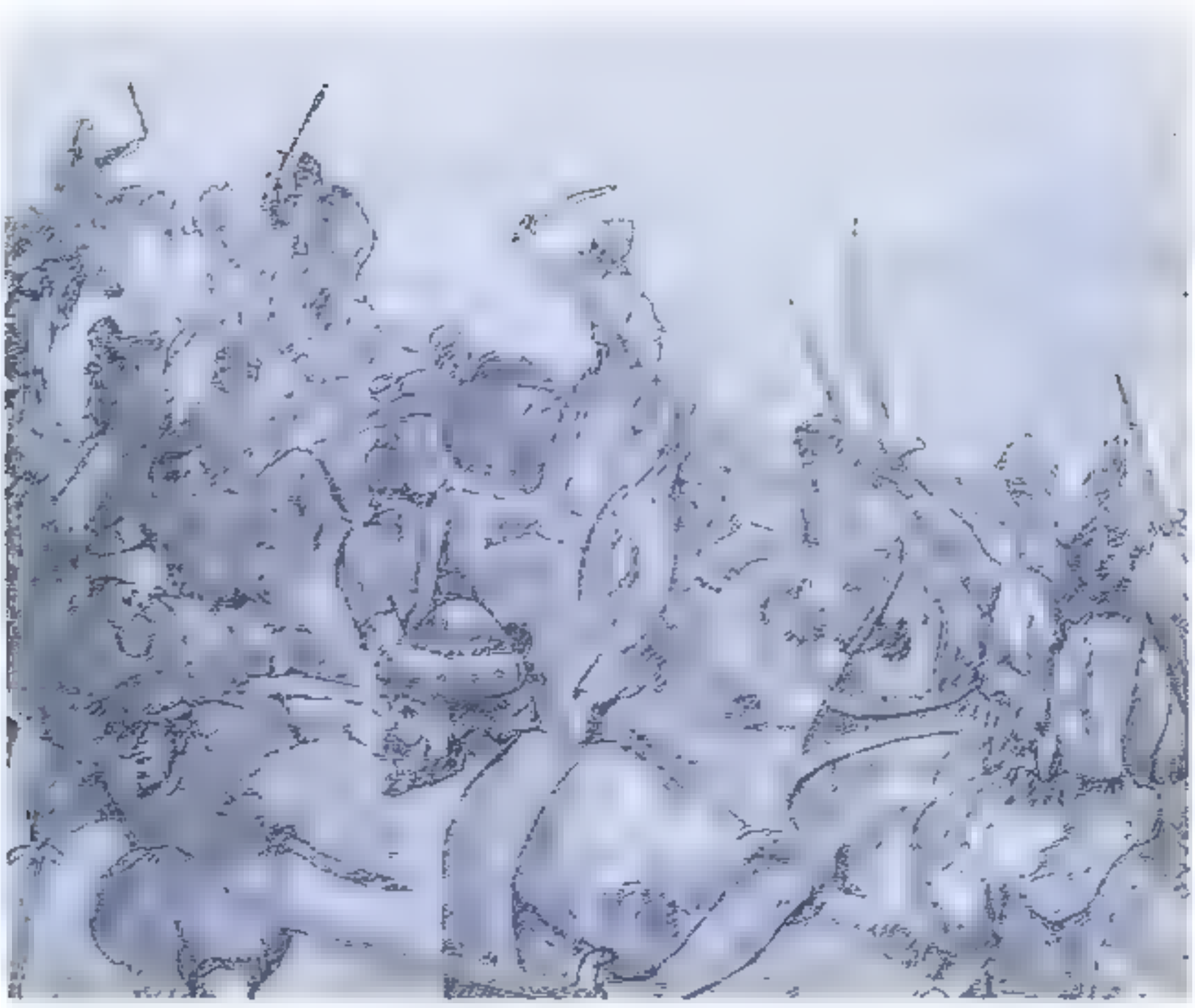

معركة مرج دابق

العربية إلى مُدد قصيرة لأنها كانت دوماً تستدعي موظفيها وتستبدلهم بآخرين فلم يتسنى لهم التعرف إلى الظروف والأحوال السائدة في المناطق التي أوكل إليهم أمر ولايتها. وكان العثمانيون يمنحون المقاطعات العربية شيئاً من الاستقلال الذاتي، باستثناء العهد الحميدي الذي كان عهد الظلم وفساد الإدارة، والفترة التي ظهرت فيها القومية الطورانية التي كانت تنادي بها جمعية تركيا الفتاة.

وكان للعرب اليد الطولى في وضع النظام القضائي للامبراطورية العثمانية فالشريعة الإسلامية المقدَّسة كانت بمثابة العامود الفقري للحكومة العثمانية والقرآن الكريم عربي وجميع المصادر التي تستقي منها الشريعة العثمانية عربية وكانت جامعة الأزهر في القاهرة والمدارس الدينية السنية في دمشق وطرابلس وحلب مراكز لتخريج عدد كبير من علماء الدين والقضاة ورجال الافتاء الراسخين في معرفة العربية ودقائق الشريعة الإسلامية وكان هؤلاء يشغلون مراكز رفيعة في المحاكم الدينية في مختلف ولايات الامبراطورية.

أمر آخر لا بد من ملاحظته هو: أن أسماء جميع السلاطين - وعددهم ١٣٦- باستثناء أورخان، كانت أسماء عربية، وكانت معظم أختامهم الملوكية وتُعرف بالمهر الهمايوني، تحتوي على كتابات عربية، فمجموعة الأختام الكبيرة المحفوظة في متحف قصر «طوب قابي» في مدينة الاستانة تحتوي على أقدم ختم... هو الخاتم الذهبي الذي أمر سليم الأوّل (١٥١٢ - ١٥٢٠) أن يختم به باب خزينة القصر. وقد نُقِش في وسط الجوهرة هذه الكلمات: «السلطان سليم شاه».

ونقش حولها بالعربية «توكلي على خالقي». كما أن هناك عدداً كبيراً من المساجد في الاستانة كتب على جدرانها وعلى سقوف قبابها آيات قرآنية. وفوق البوابة الوسطى لقصر طوب قابي، حيث كان يقيم السلطان، نجد عبارة «لا إله إلاّ اللّه ومحمَّد رسول اللّه».

ولا شك أن الإسلام كان أهم عامل يجمع العرب والأتراك في رابطة متينة طيلة أربعة قرون. فالعثمانيون الأتراك كانوا مسلمين، والسلطان كان يلقَّب «بالغازي» أو «بالمجاهد في سبيل الدين» أو «بسيف اللّه» أو «بحامي المؤمنين». كما كان السلطان العثماني يدعو نفسه «خادم الحرمين الشريفين» وذلك بعد أن تسلَّم السلطان سليم مفاتيح مكة والمدينة من يد شريف مكة

رغم أن اللغة التركية كانت لغة الدولة الرسمية ولغة الدوائر الحكومية ورغم أن غالبية الأتراك لم يتعلموا العربية إطلاقاً، فإن عدداً كبيراً من المفردات العربية دخلت اللغة التركية. وكانت الصلاة وقراءة القرآن الكريم في جوامع القسطنطينية وفي سائر المدن التركية دوماً باللغة العربية. وكان العرب يفخرون ببقاء اللغة العربية لغة الدين عند الأتراك.

العثمـانيون

لوحة تمثل الأساطيل التركية

السيّد بركات كرمز للطاعة والولاء.

ثم إن جيوشاً عربية وضباطاً عرباً من ذوي المراكز العسكرية العالية كانوا يعملون في الجيش العثماني، وقد برهنوا عن قدرة ومهارة في المعارك الحربية. كما شغل عدد كبير من العرب وظائف عالية حساسة في الامبراطورية العثمانية، فالوظائف العليا في الدولة، عسكرية كانت أم مدنية، كانت مفتوحة للعرب. وكان لهم ممثلون في مجلسي البرلمان العثماني وأصبح كثيرون منهم رؤساء وزارة ومنهم من أصبح «شيخ الإسلام» ومن أصبح قائداً عسكرياً أو والياً فكنت تجد الموظفين العرب في جميع دوائر الدولة.

ويبدو أن بعض البلدان العربية قد أفادت في القرون الأولى من الاحتلال التركي خاصة سوريا التي أفادت من ضمّها إلى الامبراطورية العثمانية وأقامت علاقات تجارية مع بلدانٍ أخرى. كما كانت تتمتع بنظام اجتماعي واقتصادي وفرّ لها شيئاً من الحياة المزدهرة.

إلى جانب مبادىء الشرع الإسلامي الذي استند إليهاالحكم العثماني بواسطة محاكم دينية يشرف عليها شيخ الإسلام، كان السلاطين، بين حين وآخر، يصدرون إرادات سلطانية وفرمانات وقوانين. لكن هذه القوانين، ما كانت تتعارض بأي شكل من الأشكال مع مبادىء الشرع، بل على العكس كانت تنسجم معها: فهي مستمدة من مصادر الشريعة الإسلامية الثلاثة أي الإجماع والقياس والاجتهاد.

وهناك مجموعة ثالثة من القوانين، كانت الامبراطورية العثمانية تنظم بموجبها أمور الجاليات غير المسلمة والجاليات الأجنبية هي «قوانين

العثمـانيون

الامتيازات الأجنبية». ولهذه القوانين طابع دولي إذ لم يكن الشرع الإسلامي يطبّق على الجاليات غير المسلمة في الامبراطورية العثمانية إلاّ في حالات نادرة لأنها اعتبرت خارج النطاق الذي يشمله الشرع.

وقد أقرّ الفاتح محمّد الثاني، فور فتح القسطنطينية، بناء على العرف الذي أخذ به أسلافه من السلاطين، مبدأ الاستقلال الذاتي للطوائف الدينية غير المسلمة ووضع أحكاماً خاصة للمقيمين من الأجانب في امبراطوريته، وهذا ما وفّر لهؤلاء تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة ومنح الجاليات الأجنبية الكبيرة التي كانت تتعاطى التجارة في الامبراطورية العثمانية امتيازات خاصة.

وكانت المصالح الاقتصادية للامبراطورية تقتضي تشجيع مثل هذه الجاليات. وأصبحت هذه الضمانات والامتيازات تعرف، فيما بعد، «بالامتيازات الأجنبية».

آيات من القرآن الكريم

وقضت الامتيازات الممنوحة للجاليات الأجنبية بتشكيل محاكم قنصلية خاصة ذات صلاحية تامة للنظر في الدعاوي بين الرعايا الذين ينتمون إلى هذه القنصلية أو تلك. وكان رعايا الدول الأجنبية المقيمون في الامبراطورية العثمانية من غير المسلمين لا يخضعون للقوانين العثمانية بل يتمتعون بأحكام خاصة بهم. وكان القاضي في هذه المحاكم القنصلية القنصل نفسه، يعاونه مستشاران والأحكام الصادرة عن هذه المحاكم تنفّذ على الأرض التركية.

أما البلدان التي انتزعها السلطان

الغجر النَّوَر

تذكر مخطوطة أجرتون Egerton رقم ٢٨١٧ الموجودة في المتحف البريطاني الامتيازات الخاصة الممنوحة للتجار والمقيمين في غلاطة، إحدى ضواحي القسطنطينية، من أهل جنوا بعد سقوط القسطنطينية في ٢٩ أيار سنة ١٤٥٣ في أيدي الأتراك. وتاريخ إصدار هذه الامتيازات هو أول حزيران من السنة نفسها.

عقب هذا أعطيت امتيازات أخرى أهمُّها الامتياز الذي أعطي لفرنسيس الأول ملك فرنسا سنة ١٥٣٥ ـ وهو أوّل ملك أوروبي أغدق عليه السلطان سليمان القانوني مثل هذا الامتياز وبموجبه حصل الفرنسيون على امتيازات تجارية واسعة في الامبراطورية العثمانية وسنة ١٥٨٠ حصل البريطانيون رسمياً، في عهد الملكة اليزابث على امتيازات خاصة.

سليم من يد المماليك فلم تكن تُحكم مباشرة في القسطنطينية. يدل على ذلك دراسة ملفّات الدوائر الرسمية وقوائم تقدير الواردات المتعلقة بسوريا والعراق ومصر.

وأعطى الأمراء الإقطاعيين والزعماء المحليين في البلدان العربية، وخاصة في لبنان، استقلالاً داخلياً يكاد يكون استقلالاً ناجزاً.

لكن المحافظة على هذا الوضع الراهن كانت تعني المحافظة على الاضطرابات الداخلية والمنازعات الثأرية الناتجة عن تنافس الأمراء. وهذا ما كان يؤدي إلى الثورات والحروب الدامية فكان السلطان العثماني يحسم الأمر ويثبت سلطته بواسطة تدخله العسكري في مثل هذه المنازعات.

ظل هذا النظام من الحكومات المحلية الإقطاعية قائماً حتى أواخر القرن التاسع عشر. أدخلت الدولة العثمانية عدداً من الشرائع والقوانين العلمانية، في القرن التاسع عشر، وعمَّمتها في طول البلاد وعرضها: التشريع العلماني الحديث هذا جاء نتيجة لعدد من العوامل منها: تأثير الفكر الغربي على الامبراطورية العثمانية، الضغط السياسي الذي كانت تمارسه هذه الدول في علاقتها مع الأتراك، المحاولات المختلفة التي قام بها الأتراك أنفسهم لإصلاح مؤسسات الدولة العثمانية، وحده قانون الأحوال الشخصية ظل خاضعاً لأحكام الشريعة الإسلامية.

أخيراً تم سنة ١٨٧٩ إعادة تنظيم السلك القضائي بإنشاء وزارة للعدل ومحاكم نظامية.

الغجر النَّوَر

نشأت عن الاضطرابات التي أحدثها مغول القرن الرابع عشر الذين كان تيمورلنك رأسهم وقطب رحاهم، ظهور شراذم متنقلة في أوروبا تتكون من شعب غريب شرقي لاجىء هو الغجر.

والغجر ظهروا أولاً في بلاد اليونان في نهاية القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر. وقد ظنّهم الناس مصريين Egyptiens، ومنها اشتقت كلمة Gipsy التي يطلقونها عليهم في أوروبا. هذا الاعتقاد شاع بين الناس جميعاً وقبلوا به هم أنفسهم وبثُّوه أينما كان.

وقد ظلُّوا يتنقلون في أرجاء آسيا الغربية قروناً عدة قبل أن تدفعهم مذابح تيمورلنك إلى عبور الهلّسبونت الدردنيل، وهذا ما دفعهم أيضاً إلى التخلّي عن أرض أرومتهم الأصلية يتطوفون أو ينتقلون في مختلف البلدان، كما تنقل من قبلهم الأتراك العثمانيون، لكنهم كانوا أقل حظاً منهم. فانتشروا تدريجياً متجهين غرباً عبر أوروبا: بقايا من نظام الترحل في

حمل الغجر معهم من قطر إلى قطر ذلك اللون من الموسيقى الشعبية وأشاعوه أينما كان. فقد كانوا موسيقيين متحمسين لفنهم مبتكرين رغم أنهم لم يكونوا قط خلاقين. حملوا إلى كل مكان حلُّوا به نوعاً من الإنشاد الشعبي وأضفوا عليه نكهة وحيوية نابعة من ذاتهم. وكم سرقوا ألحان الشعوب كما سرقوا في بعض الأحيان أطفالهم وجعلوا منهم غجراً كما أنهم لم يستعملوا أي تدوين موسيقي مع أن تقاليدهم الموسيقية كانت دوماً قوية.

النهضة الأوروبية

عالم أصبح يقوم على المحراث والاستقرار والمدنية، فقد طردوا من وطنهم القديم، سهوب بلخ ونزلوا في الأراضي المشاعية الأوروبية، وبجوار السياجات المضروبة حول المزارع وفي أراضي الغابات البرية والبقاع المهملة: وقد سمَّاهم الألمان «الهنغاريين» أو «التتار» وسماهم الفرنسيون «البوهيميين».

حافظ الغجر على تقاليد أرومتهم الأصلية، وكانت لهم لغة مميزة تشير إلى تاريخهم الضائع وتحتوي على كثير من كلمات شمال الهند، كما يحتوي لسانهم (لغتهم) على عبارات كثيرة فارسية وأرمنية.

ونحن نجد الآن منهم في كل أقطار أوروبا: منهم السمكري والبائع المتجول وتاجر الخيل وأصحاب دور الملاهي والعرافون والمتسولون.

النهضة الأوروبية

إن عصر النهضة، أو عصر الرونيسانس، أي الولادة الجديدة أو البعث، هو تلك الفترة التي كانت بمثابة مرحلة انتقال من القرون الوسطى إلى العصر الحديث. وقد عَرفت أوروبا في هذه الفترة تطورات أساسية في الحياتين السياسية والاجتماعية وشهدت نهضة في الأدب والفن والعلم وأصبح الناس ينظرون إلى الحياة نظرة جديدة غيَّرت وجه أوروبا وخلقتها خلقاً آخر.

وقد مهَّد ازدهار المدن الأوروبية السبيل للنهضة. فقد كانت أوروبا، في القرون الوسطى، تعيش في ظل نظام الإقطاع الذي جعل من الناس طبقتين: طبقة السادة مالكي الأرض وطبقة العبيد والقنان الذين يحرثونها. ولم تكن في أوروبا، آنذاك، حكومات بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بل كان كل أمير من أمراء الإقطاع سيداً في ممتلكاته الخاصة، رغم كونه، من الناحية النظرية، تابعاً لأمير أعظم منه شأناً ومن ثم تابعاً للملك.

وقد أحدث ظهور المدن انقلاباً بارزاً في حياة أوروبا. فقد أصبحت، بعد فترة، جماعة التجار تفوق أمراء الإقطاع ثروة وثقافة وقوة وتحاول التخلص من سلطانهم. ونادت المدن بمبدأ سياسي هو مبدأ الحكم الذاتي. هكذا أصبحت أكثر المدن الإيطالية والألمانية جمهوريات مستقلة بعيدة كل البعد عن الدولة الإقطاعية. بينما ساعدت مدن فرنسا وانكلترا على دعم سلطة الملك لأنها اعتبرت السلام حيوياً بالنسبة إلى التجارة، والسلام لا يقوم إلاَّ في ظل ملك قوي وليس في ظل نبلاء متنازعين متحاربين.

ومن الناحية الثقافية، أدت حياة المدن الجديدة القائمة على العمل الكادح، في قطاعي الصناعة والتجارة، إلى تقوية روح المغامرة والاعتماد على النفس وشحذ الذهن لمواجهة الحالات الجديدة التي لم يكن للناس عهد بها من قبل. وبدأ الناس يستعملون عقولهم لكسب رزقهم وهكذا أخضعوا معتقداتهم الفلسفية والدينية لحكم العقل. وشرع الأوروبيون ينتقدون النظم التي قامت عليها القرون الوسطى ويسعون لإنشاء مجتمع جديد له آراؤه الخاصة ومعتقداته الخاصة حتى إذا أطل القرن الرابع عشر انحل العصر الوسيط وبزغ فجر عصر النهضة التي سنعرض أبرز مظاهرها وأثرها في مختلف نواحي الحياة في أوروبا.

يختلف المؤرخون في تحديد عصر النهضة من الناحية الزمنية: البعض يعتبر تلك الفترة تمتد من سنة ١٣٠٠ إلى سنة ١٥٠٠ تقريباً أي من أواخر القرون الوسطى حتى بدء الإصلاح الديني ويعتبر البعض الآخر أن عصر النهضة بدأ باستيلاء العثمانيين على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وانتهى بوفاة الملكة إليزابيت عام ١٦٠٣.

تتمثل هذه الروح بلفظ «الإنسانية» Humanitas لعنايتها بكل ما يمس الإنسان، على خلاف ثقافة القرون الوسطى التي كانت تعني بالمباحث الإلهية قبل كل شيء. وعُرف بترارك «بالإنسان الأول» و«أبا العلم الجديد».

النهضة الأوروبية

لوحة تمثل التراث الكلاسيكي الإيطالي القديم

عصر النهضة يحيي التراث الكلاسيكي القديم:

كان بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) الشاعر الإيطالي أول من دعا إلى إحياء التراث الكلاسيكي القديم كوسيلة لإنشاء ثقافة جديدة تنير عقول الطلاب وتنفخ فيهم روحاً بهجة محبة للحياة.

وأبرز ما عُني به بترارك كان تحقيق المخطوطات التي حفظت على مرّ الأيام، من آثار الشعراء والمؤرخين والفلاسفة اللاتين، والتنقيب في خزائن الأديرة المهملة عن المؤلفات الكلاسيكية الضائعة.

وبعد وفاة بترارك بقليل، وفد على إيطاليا عدد من علماء الأغريق (اليونان) ليقوموا بالتدريس في جامعاتها. وتبعهم في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر جماعات أخرى لجأت إلى إيطاليا عقب استيلاء العثمانيين على جزء من ممتلكات البيزنطيين. وظلت الحال على ذلك حتى سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين سنة ١٤٥٣ فتقاطر وفود العلماء إلى المدن الإيطالية وهم يحملون ما استطاعوا استخلاصه من المخطوطات القديمة، وأبيحت للطلاب كنوز الثقافة اليونانية وأغرقوا في نهل ضروب المعرفة وأشتات الفكر. وما هي إلاّ فترة حتى

وكان لكتاب «الأمير» أثر بعيد في حياة أوروبا السياسية في العصور التالية، حتى قيل أن لويس الرابع عشر وهنري الثامن ونابليون وبسمارك قد بنوا سياستهم الاستبدادية على أساس تعاليمه.

النهضة الأوروبية

المكتبات الأوروبية

من المثقفون الإيطاليون بالثقافة الجديدة المبنية على التراث اليوناني والروماني، وأخذت الروح الدنيوية المرحة تنتشر في طبقات المجتمع الإيطالي على اختلافها.

بدأت النهضة في إيطاليا قبل غيرها من البلدان الأوروبية لأن موقع هذه المدن الجغرافي المميّز واتصالها التجاري والثقافي بالمدنيّة العربية في الشرق والعرب وفي جنوبي إيطاليا نفسها كان له أبعد الأثر في إعدادها لزعامة النهضة والتحضير لها.

وهكذا أصبحت لغات أوروبا القومية، الإيطالية والفرنسية والإسبانية والإنكليزية والألمانية، لغات أدبية لا

النهضة الأوروبية

يأنف العلماء والأدباء من تدوين آثارهم بها.

وعرف فجر النهضة، في إيطاليا، أقمار فلورنسا الثلاثة: أليجيري دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) الذي مَهَر الأدب العالمي بملحمته الشهيرة «الكوميديا الإلهية» التي جعلته بحق أبا الشعر الإيطالي. وبوكاتشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) الذي ترك في كتابه دوكاميرون Decameron مجموعة من القصص كان لها أعظم الأثر في تثبيت اللغة الإيطالية وإغنائها حتى عُدَّ صاحبها أبا النثر الإيطالي. وبترارك الذي سبق وتحدَّثنا عنه. ولا ننسى ماكياڤيللي أشهر كتَّاب النهضة الإيطالية (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) صاحب كتاب «الأمير» الذي بشَّر فيه بفلسفة الاستبداد.

العلم والاختراع في عصر النهضة:

لطالما اعتقد الناس في العصر الوسيط بأن الطبيعة تسكنها الأرواح والعفاريت التي يجب على الإنسان أن يسترضيها. لذلك لم تقم في ذلك العصر أية محاولات علمية صحيحة لدراسة البيئة الطبيعية المحيطة بالإنسان.

وحلَّ عصر النهضة فحوَّل الناس عن موقفهم السلبي هذا من الطبيعة والحياة إلى موقف إيجابي ساعدهم على ملاحظة الظواهر الطبيعية ودراستها. ورافق هذا التحوُّل انبعاث للتراث اليوناني في الفيزياء والطب والفلك وعرف عصر النهضة نهضة جبارة في حقل الطب خصوصاً وأصبح كل من علم التشريح وعلم الفيزيولوجيا يقومان على قواعد تجريبية تستند إلى إعمال المبضع في الأجسام الميتة.

وكان لعصر النهضة أثر بعيد في تقدم الجغرافيا وعلم الفلك. فإذا لحركة الاستكشاف التي قام بها ملاحو المدن الإيطالية أثر بعيد في معرفة الناس بجغرافية الأرض، واستفاد راسمو الخرائط الجغرافية من النتائج العلمية التي أدت إليها حركة الاستكشاف هذه فوضعوا مصورات جغرافية كثيرة القصد منها خدمة التجار والملاحين بالدرجة الأولى. وأدت النهضة الجغرافية الجديدة إلى نشوء علم الفلك الجديد بزعامة العالم البولوني الشهير كوبرنيكس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) الذي أعلن أن الأرض وسائر السيارات تدور حول الشمس، لا العكس كما علَّم بطليموس وأن للأرض بالإضافة إلى هذه الدورة دورة حول محورها تتم كل أربع وعشرين ساعة.

وعرف عصر النهضة بعض الاختراعات منها: الطباعة بالحروف المنفصلة، وهذا الاختراع ساعد على نشر العلم والمعرفة في أكبر عدد ممكن من الناس بعد أن حلَّت الآلة محل يد الناسخ وبعد أن حلَّ الورق محل الرقوق فوثبت صناعة الكتب وثبة جبارة إلى الأمام.

أوَّل أثر أخرجته المطبعة كان نسخة لاتينية من «الكتاب المقدس» حوالي سنة ١٤٥٤. وصاحب الفضل الأوَّل في اختراع آلة الطباعة هو يوحنَّا غوتمبرغ الألماني (١٤٠٠ ـ ١٤٦٨).

● عصر النهضة وعلم الاجتماع والاقتصاد:

لم يكن الناس منقسمين إلى طبقات، في العصر الوسيط، وحسب بل كانت حياة الفرد تتأثر إلى حد بعيد بالتفكير الطبقي والولاء الطبقي والتقاليد الطبقية. فكان هناك محاكم خاصة بالنبلاء، ومحاكم خاصة برجال الدين وأخرى لأهل المدن والفلاحين وكان لكل طبقة لباسها الخاص وفنها الخاص وتسليتها الخاصة وكان الفرد يخضع، إجمالاً، لمجموعة مزعجة من العادات والتقاليد التي تعوق نمو شخصيته وتعرقله.

وما أن أطل عصر النهضة حتى شرع الناس يتحرَّرون من نير الولاء للمجموع، وراحوا ينادون بالحرية الشخصية لكل فرد. وتضايق تجار عصر النهضة من القيود التي تفرضها عليهم نقاباتهم فنادوا بضرورة الأخذ بسياسة اقتصادية حرَّة، ونزعت نفوس المثقفين الذين ينهلون من ينابيع الفكر اليوناني القديم إلى التخلص من سلطان الكنيسة وقيود الأخلاق. فأدَّت النهضة إلى نتيجتين اجتماعيتين: تقوية النزعة الفردية والانعتاق من الكثير من الأغلال والقيود الموروثة.

وقضى عصر النهضة على نظام «النقابات» الذي كان يسيطر على الحياة الاقتصادية في القرون الوسطى. وهذا ما أدى إلى نشوء النظام الرأسمالي والشركات التجارية الكبيرة والمصارف التي انتشرت فروعها في كل البلدان.

النهضة الأوروبية

هكذا شملت النهضة كل مظهر من مظاهر الحياة، الفكر والأدب والعمارة والنحت والتصوير والعلوم والاختراعات وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، ليس في بلد واحد من بلدان أوروبا فقط بل في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا وإنكلترا. ويمكننا القول أن النهضة غيّرت وجه الحياة الأوروبية تغييراً كاملاً وشاملاً في آن.

● **ولادة الرأسمالية:** سَجَّل نهاية القرن السادس عشر نقطة مهمّة في تاريخ أوروبا الاقتصادية: فقد الإسبان سلطة الإشراف على المعادن الثمينة. وجاء تدني أسعار المنتجات ليزيد سوءاً إلى سوء فقدان الاستقرار. وتوالت حالات التضخم ووهنت الوثبات الاقتصادية وجهود الرأسماليين، وراحوا يبحثون عن وسائل تقنية، في جو اضطراب الأسعار: ففي كل بلد تدهور وهبوط وعرقلة وفتور وتفكك، ونسبت كل هذه النكبات ليس فقط إلى الحروب بل إلى الأحوال الجوية، والتلاعب بالنقود وكثافة السكان. خلاصة القول كان القرن السابع عشر عصر أزمات ومشكلات اجتماعية كثيرة.

وسادت الملكية المطلقة في القرن السادس عشر: فكانت ألمانيا وإيطاليا مقسمتين إلى رقاع صغيرة من الإمارات الاستبدادية (الأوتوقراطية) كما كان الحكم في إسبانيا استبدادياً أيضاً ولم يصل العرش يوماً في انكلترا إلى مثل قوته آنذاك، وأصبحت الملكية الفرنسية على الأيام، ومع تقدم القرن السابع عشر أعظم دولة في أوروب وأشدها تماسكاً.

وقد دأب الحكام على إلقاء أوروبا في أتون حمًى من الحروب التي كانت نفقاتها في ازدياد باهظ، إذ لم تعد الجيوش مكوَّنة من مجندين غير مدرَّبين ولم تعد جموعاً من الفرسان الذين يجلبون معهم من إقطاعاتهم الخيل والسلاح والأتباع، بل أخذت تشتد حاجة هذه الجيوش إلى المدفعية وأصبحت تتكون من جنود يتناولون أجوراً يلحون في طلبها، جنود محترفين حاذقين لبقين فزادت نفقات الحرب في كل مكان واستدعت الزيادة المستمرة فرض الضرائب.

واشتبكت هذه الملكيات، ملكيات القرنين السادس عشر والسابع عشر في نزاع بينها وبين قوى للحرية جديدة غير مكتملة النضج في المجتمع. وتلفت الأمراء حولهم فوجدوا أنفسهم لا يتحكمون بحياة رعاياهم ولا بأموالهم، بل وجدوا مقاومة مزعجة للضرائب التي كانت ضرورية لاعتداءاتهم ومحالفاتهم السياسية. وأصبحت الشؤون المالية شبحاً كريهاً في كل قاعة يجتمع فيها مجلس.

لم يكن أصحاب الأملاك، في بادىء الأمر يحفلون بالسياسة الخارجية كثيراً، إذ لم يشعروا، أول الأمر، أنها تؤثر فيهم وسلّموا أنها من شؤون الأمراء والملوك. ولكن حدث أن اشتبكوا مع نتائج السياسة وتعقيداتها مباشرة، فاعترضوا على الضرائب الفادحة وعلى التدخل في شؤون التجارة وعلى الحبس التعسفي وعلى تحكمُّ الملك بالضمائر. فأعلنوا الكفاح ضد التاج.

● انفصال الأراضي الواطئة عن الملكية المطلقة:

كان انفصال الأراضي الواطئة عن الملكية المطلقة بداية سلسلة من المنازعات التي استمرت طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر. وهذه المنازعات هي، من حيث الجوهر، تمرداً على السلطان الشخصي للأمير وعلى توجيهه السياسي والديني.

فقد نمت في الأراضي الواطئة إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر مدن ضخمة منها: غنت، بروج، إيبر، أترخت، ليدن وهارلم وتطوَّرت في

٣٥ ألف مطبوعة مختلفة طبعت بين عامي ١٤٥٠ و١٥٠٠، تتضمن نحواً من عشرة إلى خمسة عشر ألف نص، فإذا حسبنا أن كل مطبوعة كانت تصدر ٥٠٠ نسخة اتضح لنا أن عشرين مليون نسخة طبعة قبل عام ١٥٠٠ وهذا رقم ضخم بالنسبة إلى عدد سكان أوروبا آنذاك (مئة مليون نسمة في البلدان التي نشرت فيها هذه المنشورات). وكان ٧٧٪ من الكتب باللغة اللاتينية، ٧٪ بالإيطالية، ٦٪ بالألمانية، ٥٪ بالفرنسية. وكان منها ٣٠٪ كتب أدبية، ٤٥٪ كتب دينية و١٠٪ كتب حقوقية و١٠٪ كتب علمية.

النهضة الأوروبية

هذه المدن «حكومات مجالس بلدية» شبه مستقلة وطبقة من رجال المدن المتعلمين.

وانتشرت في عهد شارل في الأراضي الواطئة المبادىء البروتستانتية التي كانت تعمُّ ألمانيا آنذاك. فاضطهد شارل الناس بشيء من الشدة، لكنه ما لبث أن ترك الأمر إلى ولده فيليب الثاني (١٥٥٦). لكن سياسة فيليب الخارجية الناشطة أصبحت مصدر شر آخر بينه وبين نبلاء الأراضي الواطئة وأهل مدنها. فقد كان مشتبكاً في حرب مع فرنسا واضطر لأن يلجأ إليهم طالباً المعونة، فنصب النبلاء العظام أنفسهم على رأس مقاومة شعبية عامة بقيادة وليم الصامت أمير أورنج. وأصبح التفريق بين الاعتراض على فرض الضرائب والإعتراض على الاضطهاد الديني مستحيلاً: فالنبلاء لم يكونوا في بادىء الأمر من البروتستانت لكنهم اعتنقوا هذا المذهب عندما اشتدت حدة النزع مرارة بينما كان الشعب بروتستانتياً متعصباً.

وعقد فيليب العزم على حكم الأراضي الواطئة وضمائر أهلها جميعاً. فأرسل إليهم نخبة مختارة من الجنود الإسبان برئاسة نبيل اسمه «ألڤا» وكان صارماً ظالماً لا تعرف الرحمة قلبه فطفق يحكم البلاد ردحاً من الزمن بقبضة من حديد. لكن اليد الحديدية تبث في ما تمسه روحاً من حديد، بل جهرت كل الأراضي الواطئة بالعصيان سنة ١٥٦٧، فأصبح وليم الصامت زعيم الهولنديين الأكبر ومليكهم.

واستمر الكفاح في سبيل الحرية زماناً طويلاً تحلله كثير من التعقيد

سياسة القبضة الحديدية

النهضة الأوروبية

ويجدر بالذكر أن العصاة ظلوا متمسّكين، في كافة أدوار كفاحهم، بأن فيليب الثاني هو ملكهم، شرط أن يرضى بأن يكون ملكاً معقولاً ومحدود السلطان. لكن فكرة الملكية المقيدة كانت فكرة كريهة المذاق لدى أصحاب التيجان في أوروبا. وأخيراً دفع فيليب بالمقاطعات المتحدة التي يطلق عليها اليوم اسم هولندة إلى النزوع نحو الحكم الجمهوري.

هذا النزوع ظهر في هولندة فقط وليس في جميع الأراضي الواطئة لأن القسم الجنوبي منها أي بلاد البلجيك ظل، حتى نهاية الكفاح، ولاية إسبانية وكاثوليكية العقيدة أيضاً.

وحصلت معركة في ١٨ أيلول حين أصدر الدون فردريك أمراً بالهجوم بعد ضرب المدينة بالمدافع ضرباً متواصلاً دام اثنتي عشرة ساعة تقريباً. وكان السكان المحاصرون يصبون الماء الحار والقار والزيت المغلي والرصاص المصهور و لجير الحي على المحاصرين. وكانت منات الأطواق المقيرة والمحمّاة بمنارةُ تلقى حول أعناق الجنود الذين حاولو ، عبثاً، أن يخلّصوا أنفسهم من تلك الأطواق النارية.

واتخذت هولندا المحرَّرة شكل جمهورية من الأشراف تحت رئاسة آل أورانج وكان مجلس الطبقات أقر

لوحة تمثل الحروب الهولندية

النهضة الأوروبية

تمثيلاً لهيئة المواطنين من البرلمان الإنكليزي. لكن هولندة لم تصبح مستقلة بالفعل حتى سنة ١٦٠٩ ولم يُعترف باستقلالها اعترافاً كاملاً إلاّ في معاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨.

• صراع البرلمان الإنكليزي مع الملكية المطلقة:

يبدأ الكفاح الذي سنتحدث عنه الآن بمحاولات هنري السابع وهنري الثامن وخلفاؤهما إدوارد السادس وماري إليزابيت، جعل حكومة أنكلترا «ملكية شخصية» من الطراز الشائع في أوروبا. وقد اشتد هذا الكفاح حين حدث، بفعل المصاهرة في الأسرة المالكة أن أصبح جيمس ملك اسكتلندة جيمس الأول ملك انكلترا واسكتلندة على السواء سنة ١٦٠٣ وأخذ يتكلم عن «حقه الإلهي» في أن يفعل ما يشاء.

«الماجنا كارتا» أي العهد الأعظم، هو تصريح أُخذَ غصباً من الملك جون (١١٩٩ ـ ١٢١٦) وهو أخو الملك ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩ ـ ١١٩٩) وخليفته، بعد العصيان الذي قام به البارونات في ١٢١٥. وهو يكرّس عدداً من الحقوق الجوهرية التي جعلت من انكلترا دولة قانون لا دولة ملك. كما يأبى أن يتسلط الملك على الممتلكات وعلى الحرية الشخصية للمواطنين من أي نئة كانوا إلاّ إذا حصل ذلك برضى المواطن ذاته.

وكان هناك تقاليد لجمعية شعبية تجمع ممثلي الشعب ذوي النفوذ من الرجال لحفظ حرياتهم العامة. وكانت تلك الجمعية أنشط في انكلترا منها في أي بلد أوروبي آخر. كانت تتسم بميزة خاصة من ناحيتين: الأولى، استنادها إلى تصريح يتخذ صفة الوثيقة، هي «الماجنا كارتا» وتحتوي على حقوق معينة أولية وعامة. والثانية أنها كانت تضم «فرسان مقاطعات» منتخبين ونواباً عن المدن.

أبدى الفرسان ورجال المدن، في بادىء الأمر، قدراً كبيراً من عدم الرغبة في حضور البرلمان. لكنهم سرعان ما أدركوا القوة التي يملكونها في اتخاذ رفع الظلم عن الناس شرطاً لدفع الضرائب للدولة.

وكان ممثلو أصحاب العقارات في المدن والأرياف يسمُّون باسم «العموم» وكانوا يعقدون جلساتهم ويتناقشون في الأمور، منذ البداية، بمعزل تام عن كبار اللوردات والأساقفة. هكذا نمت في انكلترا جمعية نيابية تمثيلية هي مجلس العموم، إلى جانب جمعية أخرى من الأساقفة والنبلاء هي مجلس اللوردات. ولم يكن هناك فارق جوهري عميق بين هيئتي الجمعيتين: فقد كان لكثيرين من فرسان المقاطعات قيمتهم ووزنهم، وربما بلغوا من الثراء والنفوذ مبلغ النبلاء، وكان بينهم أبناء النبلاء وأشقاؤهم المقاطعات.

ومنذ البداية أظهر هذان المجلسان، وخاصة مجلس العموم، ميلاً إلى ادعاء الحق الكامل في فرض الضرائب على البلاد، وأخذا، تدريجياً يوسّعان دائرة اختصاصهما من النظر في المظالم إلى نقد شؤون المملكة كلها.

ميزة أخرى، تحلّى بها النضال السياسي الإنكليزي هي: انفصاله النسبي عن الصراع العظيم بين الكاثوليك والبروتستانت الذي كانت نيرانه مستعرة في كل أرجاء أوروبا.

ووصل الصراع بين الملك والبرلمان إلى وضع حاد قبل وفاة جيمس الأوّل في ١٦٢٥. لكنه لم يبلغ ذروته ويصل إلى الحرب الأهلية إلاّ في حكم ولده شارل الأوّل. فقد زجَّ شارل المملكة في حرب مع إسبانيا وفرنسا، بسبب قلة الرقابة البرلمانية على السياسة الخارجية. وحين جاء يطلب من البرلمان المدد آملاً أن يتغلّب الشعور الوطني على ما تبيّته النفوس من كراهية طبيعية لمنح المال، رفض البرلمان امداده بالمال. فطلب من الكثيرين من رعاياه القروض، وحاول فرض بعض ألوان الضرائب غير القانونية على الناس.

هذا الأمر، أدى بالبرلمان إلى إصدار وثيقة لا تنسى أبداً سنة ١٦٢٨ هي «ملتمس الحقوق» ذكّر فيها شارل الأول بالعهد العظيم وأكّد القيود القانونية على سلطة الملك الإنكليزي وأنكر حقه في جباية الضرائب من أي إنسان أو سجنه أو معاقبته أو أن ينزل جنوده على حساب الناس دون اتخاذ الإجراءات القانونية الواجبة.

وسنة ١٦٢٩، تصرف شارل مع

النهضة الأوروبية

البرلمان تصرفاً تعسفياً متغطرساً فحلّه، وظل أحد عشر عاماً يحكم بلا برلمان ويجمع الضرائب جمعاً غير قانوني. وسنة ١٦٣٨ حاول شارل أن يبسط طابع الكنيسة الإنكليزية الجامع بين البروتستانتية والكاثوليكية على مملكته الاسكتلندية التي كانت تتبع نظام البرسبيتاريان Presbytarian. فثار الاسكتلنديون وتمرد الجنود الإنكليز الذين جمعهم شارل لمقاتلتهم. ونتيجة لهذه السياسة الخارجية كان الإفلاس من نصيب شارل فاضطر، حين لم يعد لديه مال ولا جنود جديرين بالثقة، أن يدعو آخر الأمر إلى تشكيل برلمان جديد، وذلك سنة ١٦٤٠، لكنه حلّه في السنة نفسها، وهذا ما عُرف بالبرلمان القصير، ثم حاول الاستعانة بمجلس من النبلاء في يورك ثم استدعى في تشرين الثاني من السنة نفسها آخر برلمان له.

أصدر هذا البرلمان مشروع قانون وفيه اتخذ التدابير اللازمة لاجتماع البرلمان مرة كل ثلاث سنين على الأقل، سواء استدعاه الملك أم لم يستدعه. وحاكم كبار وزراء الملك الذين أعانوه على الحكم في ذلك الزمان الطويل بلا برلمان خاصة الإيرل سترافورد.

ورفع الملك لواء الحرب في نوتنجهام في مساء يوم مظلم من آب سنة ١٦٤٢ وكان الجيش يأتمر بأوامره كونه الرئيس التقليدي له. لكن البرلمان كانت له موارد أعظم بالجنود. وبدأت، عقب ذلك، حرب أهلية طويلة عنيدة استحوذ فيها الملك على أكسفورد والبرلمان على لندن. وكان النجاح يتنقل من جانب إلى جانب لكن الملك لم يستطع قط أن يطبق على لندن، ولم يتمكن البرلمان من الاستيلاء على أكسفورد.

وبرز من بين قادة البرلمان رجل اسمه أوليفر كرومويل، وكان قد جمع ثلة من الفرسان وارتفع إلى رتبة جنرال كما أدرك الحالة الرديئة التي تتخبط فيها القوات البرلمانية فنصّب نفسه لإصلاحها. ووجد شيئاً أقوى من الفروسية والولاء لخلق الانضباطية لدى الجنود، أي الحماسة الدينية. جمع فرقة من «الربانيين الأتقياء» تتكوّن من رجال جديين معتدلين في حياتهم وذوي عقيدة قوية. وتجاهل التقاليد الاجتماعية وجمع ضباطه من أبناء كل طبقة. هكذا ولدت في انكلترا قوة جديدة هي الحرس الحديدي قوامها السعاة والحوذية وربابنة السفن إلى جانب أبناء البيوت العريقة. وأصبحت نموذجاً بني على منواله البرلمان جيشه، واجتاح هؤلاء الرجال فرسان الملك ووقع الملك أسيراً في قبضة البرلمان.

وبُذلت محاولات لتسوية الأمور وترك الملك في عرشه بشكل ما، لكن شارل لم ينقطع عن تدبير الخطط وهذا ما دفع الإنكليز إلى محاكمته على خيانته لشعبه. واجتمع المجلس وحكم على الملك بأنه «طاغية وخائن وقاتل وعدو لبلاده» وأخذ صباح أحد أيام شهر حزيران سنة ١٦٤٩ إلى مشنقة، أقيمت خارج نوافذ قاعة ولائمه الخاصة في هوايت هول وهناك قطعت رأسه.

وخلال ردح من الزمن تمكن أوليفر كرومويل وجيشه من حماية النهج الجمهوري الذي سلكته انكلترا. وكان الأرلنديون الكاثوليك قاموا بمذبحة بين الإنكليز البروتستانت النازلين في إرلندا فقمع كرومويل الإرلنديين العصاة بشدّة عظيمة. ثم جاء دور اسكتلندا فمزّق كرومويل جيشاً ملكياً في معركة دنبار سنة ١٦٥٠. ثم صرف انتباهه إلى هولندا وكان الهولنديون آنذاك سادة البحر، فكان قتال الأسطول الإنكليزي غير مضمون العاقبة. ولكن بعد سلسلة من المعارك البحرية العنيفة طُرد الهولنديون من البحار البريطانية وحل الإنكليز محلهم بوصفهم الدولة البحرية العظمى وأصبح لزاماً على السفن الهولندية والفرنسية أن تخفض لها راياتها. وتوجه أسطول انكليزي إلى البحر الأبيض، وكان أول قوة بحرية إنكليزية تدخل تلك المياه ورفع الحيف اللاحق بأرباب السفن الإنكليز من توسكانا ومالطة وحطّم أسطول القراصنة الذي اعتاد، على أيام شارل وتراخيه أن يصل حتى شواطىء كورنوال وديفون قاطعاً الطريق على السفن حاملاً الرقيق من أفريقيا.

وتدخل الإنكليز كذلك لمساعدة البروتستانت في جنوب فرنسا الذين كان دوق سافوي يطاردهم ويفتك بهم. ثم وجدت كل من فرنسا والسويد والدانمارك أن من الحكمة التغلب على

النهضة الأوروبية

لوحة تمثل الأساقفة

نفورهن الأول من «قتل العاهل» وتحالفن مع انكلترا. ونشبت الحرب مع إسبانيا فدمّر الأميرال الإنكليزي العظيم بليك أسطول المعادن الإسباني في تاناريف بأقدام وجرأة لا يصدّقها عقل. فقد هاجم البطاريات البرية وكان بذلك أول رجل «جعل السفن تخدش كبرياء قلاع الشواطىء».

وفي ٣ أيلول سنة ١٦٥٨ توفي كروموبل. وما كادت يده القوية تجمد عن الحركة حتى تخاذلت بريطانيا عن تلك المحاولة السابقة لأوانها في إنشاء دولة قوية قوامها الأحرار من الرجال وسنة ١٦٦٠ رحّب الناس في انكلترا بعودة شارل الثاني ابن شارل الشهيد

النهضة الأوروبية

لوحة تمثل الأسطول الحربي البريطاني في البحر المتوسط

بكل مظاهر الحفاوة والولاء الشخصي وتراجعت البلاد عن كفايتها العسكرية والبحرية وقضي على «البيوريتان» وانتهى أمرهم وعادت انكلترا إلى سيرتها الأولى. وسنة ١٦٦٧ دخلت سفن الهولنديين إلى نهر التايمز ووصلت إلى جرا فزند Gravesend وأحرقت أسطولاً إنكليزياً في الميدواي، وهو نهر صغير يصب في نهر التايمر.

ومنذ عودته سنة ١٦٦٠ قبض شارل الثاني على زمام شؤون الدولة الخارجية بين يديه وسنة ١٦٧٠ عقد محالفة سرية مع لويس الرابع عشر الفرنسي، تعهد فيها أن يجعل السياسة الإنكليزية الخارجية تابعة تماماً لسياسة فرنسا مقابل جَعْلٍ سنوي مقداره مئة ألف جنيه. وكانت دنكرك، التي سبق أن استولى عليها كرومويل قد بيعت إلى فرنسا. وكان الملك رياضياً عظيماً وتمكن بفضل روحه المرحة، أن يحتفظ بالعرش طوال حياته إذ التزم خط الحيطة والتفاهم والمسالمة. لكن أخوه جيمس الذي خلفه سنة ١٦٨٥ باسم جيمس الثاني لم يدرك التقييد السري الذي يحد من السلطة الملكية في انكلترا فعاد النزاع القديم بين البرلمان والملك إلى حدّته الأولى. ولأن جيمس الثاني كان كاثوليكياً مخلصاً فقد نصّب نفسه لإرغام مملكته على العودة إلى الاتحاد الديني مع روما. فإذا به يجبر سنة ١٦٨٨ على الهروب إلى فرنسا. لكن اللوردات والتجار والجنتلمانية كانوا هذه المرة أوعى من أن يقذف بهم هذا التمرد على الملك إلى أيدي كرومويل آخر. فاستدعوا ملكاً آخر هو وليم أمير أورانج ليحل محل الملك وتمّ التغيير سريعاً ولم تحدث أية حرب أهلية، إلا في إيرلندا، ولم تعصف بالبلاد أية قوة ثورية كبيرة.

ثم انتقل العرش إلى آن سنة ١٧٠٢، ويظهر أنها كانت تنظر بعين العطف إلى عودة الملكية إلى أسرة ستيوارت، لكن اللوردات والعموم وكانا آنذاك مسيطرين على الشؤون

النهضة الأوروبية

الإنكليزية فضلوا أن يتولى الحكم ملك غير كفؤ وقام نوع من الادعاء بالعرش من آل هانوفر. فأصبح منتخبهم ملكاً على انكلترا باسم جورج الأول سنة ١٧١٤ وكان ألمانياً قحاً لا يعرف اللغة الإنكليزية وجلب معه إلى البلاط الإنكليزي حشداً من النساء الألمانيات والحشم الألمان.

وسنة ١٧٢٧ عقب جورج الثاني الملك جورج الأوّل وكان شديد الشبه به ولكن بموته سنة ١٧٦٠ أتيح لانكلترا ملك مولود في انكلترا يتكلم الإنكليزية هو جورج الثالث، حفيد جورج الأول.

تلك بإيجاز قصة الكفاح الذي حدث في انكلترا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بين العوامل الثلاثة الكبرى في مشكلة الدولة العصرية أي بين التاج وأصحاب الأملاك الخاصة وعامة الشعب. وقد أصبحت انكلترا في عهد الأسرة الهانوفرية «جمهورية متوجة». وصاغت طريقة جديدة للحكم، هي الحكم البرلماني، وقدّر لجمعيتها في وستمنستر أن تصبح أم البرلمانات في كافة أقطار العالم.

● الدويلات الإيطالية في عصر النهضة:

كانتالامبراطورية الجرمانية التي نهضت، في القرون الوسطى، على أنقاض الامبراطورية الرومانية، خاضعة لسلطة النبلاء الإقطاعيين. لذلك لم تعرف في مستهل عهدها، لا مدناً كبيرة ولا تحركات جماهيرية واسعة ولا ديكتاتوريات سياسية، بينما نجد في شبه الجزيرة الإيطالية، في مستهل القرن الثاني عشر ميلادي عدداً كبيراً من الحكام الطغاة الذين انفرد كل واحد منهم بحكم مدينة أو مقاطعة حكماً استبدادياً لا يخضع لأي شرع أو قانون.

ويبلغ عدد الدويلات الإيطالية المئات، وكانت في حالة حروب مستمرة في ما بينها. خاصة وقد توافرت لبعضها أسباب القوة بفضل تجارتها مع الشرق وازدهارها منذ القرن الحادي عشر.

واستمر تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية، خاضعاً، خلال فترة طويلة، لتنافس الدول الكبرى المجاورة وأطماعها التوسعية: الامبراطورية الجرمانية في الشمال، فرنسا وإسبانيا.

وفي نهاية عصر النهضة، في القرن السادس عشر، وضعت، الامبراطورية الجرمانية وفرنسا وإسبانيا، حداً لاستقلال شبه الجزيرة الإيطالية ودويلاتها وأخضعتها لسيطرتها طيلة ثلاثة قرون. واتبّع الامبراطور الجرماني فريدريك الثاني، في حكمه للدويلات الإيطالية الخاضعة له، نظاماً حكومياً مشابهاً للنظام المتبّع في امبراطوريته. فقد أنشأ بيروقراطية حديثة، خصوصاً في الشؤون المالية وطرق الجباية المستمدة جميعها من التشريعات الإسلامية. وأنشأ جهازاً قوياً من الشرطة السرية، جميع أفراده من العرب، ساعده على إحكام سيطرته على الدويلات الإيطالية.

والظاهرة البارزة في حكم الملوك الجرمان، كانت إلغاء حقوق الفئات الشعبية إلغاء تاماً لأن هذه الفئات، في نظرهم، مصدر فتن وأعمال شغب. لكن ذلك لم يمنع فردريك الثاني من الاستعانة بهذه الفئات كلما اقتضت مصلحة الدولة ذلك. وفي السنوات الأخيرة من حكمه لجأ فريدريك الثاني إلى احتجاز عدد من الرهائن من كل دويلة وأوكل أمر رهائن كل دويلة إلى دويلة أخرى وهذا ما ساعده على تقييد تلك الدويلات بشبكة من الرهائن ومنع بذلك تمرد الجميع على سلطته المطلقة... واستمر في فرض جو من الإرهاب الأسود على الجميع.

وكان من النادر جداً أن يموت حاكم ميتة طبيعية، فكان في حالة خوف مستمر حتى وهو بين أحضان عشيقته. وازدهرت في تلك الظروف تجارة جديدة تقوم على توفير الجنود المرتزقة لحكام الدويلات لأن ثقتهم بمواطنيهم كانت معدومة.

لا بد من الإشارة إلى اهتمام حكام شبه الجزيرة الإيطالية اللافت بالفنون، في عصر النهضة، فقد تنافسوا على اجتذاب الشعراء والفنانين والعلماء إلى قصورهم وأغدقوا الهدايا الثمينة عليهم، لا شغفاً منهم بالأدب والفن والعلم بل للتباهي بذلك أمام بعضهم البعض. وأكثر هؤلاء الحكام اهتماماً بهذا الجانب الحضاري أسرة مديسيس، حكام فلورنسا.

في تلك المرحلة، بدأ الصراع بين

النهضة الأوروبية

البابوية، في روما، وبين بعض الأسر الإقطاعية على ملكية الأراضي في وسط إيطاليا، أي في الجزء المسمّى «ربلة الساق» أو «بطة الساق» الإيطالية، والذي سيطرت عليه بالقوة أسرة مديسيس. فاستعان البابا سيكست الرابع بأسرة من نبلاء فلورنسا معادية لأسرة مديسيس لاستعادة تلك الأراضي التابعة للكنيسة. وتمكن أحد هؤلاء من اغتيال لوران مديسيس وشقيقه جوليان في كاتدرائية فلورنسا، لكن لوران نجا من الموت وتمكن بعد أن شفي من جراحه من القضاء على خصومه جميعهم.

هذا الصراع الدامي على ملكية الأرض أدى إلى اغتصاب الأرض من الكنيسة وتورط البابوية في هذا الصراع: فأبناء أشقاء البابوات المتعاقبين على الكرسي الرسولي، استغلوا منصب أعمامهم للاستيلاء على الأرض لا لإعادتها إلى الكنيسة بل لإقامة دويلات خاصة بهم فوقها. ومن هؤلاء جيرولامو، ابن شقيق البابا سيكست الرابع، ولكن وفاة البابا المذكور في آب ١٤٨٤ أفشلت مساعي جيرولامو الذي مالبث أن قتل على أيدي ضباطه في قصر «فورلي» وألقيت جثته من نافذة القصر.

ولا ننسى أيضاً سيزار بورجيا، ابن شقيق البابا الكسندر السادس الذي أقدم على الاستيلاء على الأراضي التابعة للكنيسة بالقوة، كما فعل جيرولامو، ونجح في القضاء على خصومه وفي إحكام سيطرته على أملاك البابوية جميعها. وكانت القاعدة السياسية التي استند إليها هي: «الغاية تبرر الوسيلة» وهي شعار أحد مفكري العصر المذكور، واضع كتاب «الأمير» نيقولا ماكيافيللي.

● إيڤان الثالث مؤسّس الدولة الروسية الحديثة:

من أبرز نتائج الاحتلال المغولي للأقاليم الجنوبية والشرقية من روسيا سنة ١٢٤٠ هروب سكان تلك الأقاليم إلى السهول الخصبة والسهوب المترامية الأطراف في المناطق الشمالية المحيطة بمدينة موسكو حيث تكثر الجبال والغابات الكثيفة فلا يصل إليهم طغيان المغول. وهذا التجمُّع السكّاني في الشمال أدّى إلى نمو الشعور الوطني لدى الفلاّحين وبالتالي إلى ولادة روسيا.

وسنة ١٤٦٢ تبوأ عرش روسيا الملك إيڤان الثالث الكبير، خلفاً لأبيه باسيل الثاني فتمكّن بدهائه وقوة شخصيته من ضم الإمارات الإقطاعية في الشمال إلى الدولة الروسية الجديدة. ثم اتجه نحو التوسُّع منشئاً جيشاً كبيراً حسن التنظيم، وأول ضحية له كانت ليتوانيا على بحر البلطيق: فقد احتلها وأخضعها للحكم الروسي. ثم اتجه نحو الشرق، إلى محاربة المغول وتمكن بعد معارك عنيفة مع الجيوش المغولية التي دبَّ فيها الوهن، من تحرير الأقاليم الروسية في الجنوب والشرق. وبعد قتال مرير، دام قرابة عشرين عاماً، نجح إيڤان الثالث في إبعاد الخطر المغولي عن بلاده بشكل نهائي.

لكنه لم يكتف بإبعاد الخطر المغولي عن بلاده بشكل نهائي، بل حملته الخلافات الداخلية في الامبراطورية المغولية والصراع العنيف على السلطة بين الأمراء المغول، على تحقيق أطماعه التوسعية فتقدم نحو بعض إمارات آسيا الوسطى الإسلامية وأخضعها بالقوة للحكم الروسي.

وإيڤان الثالث هو أوّل من أرسى قواعد الدولة الروسية والممهد لقيام الامبراطورية الروسية القيصرية التي أصبحت من بعده «سجن الشعوب»: فقد عمد إلى حصر جميع السلطات الأساسية في شخصه وأدّعى بأنه وريث الامبراطورية البيزنطية التي انهارت تحت ضربات الأتراك العثمانيين. وجعل مدينة موسكو، عاصمة روسيا،

تركت طفولة إيڤان الرابع الجافة الخالية من الحنان والعاطفة تأثيراً قوياً عليه. فبدا، إثر تسلمه الحكم حاقداً على جميع الناس متعطشاً لسفك الدماء ميالاً للبطش بالشعوب الأخرى التي أخضعها بالقوة. ثم إنه عايش، منذ حداثة سنة، الخصومات الدموية المستمرة بين الأسر النبيلة الكبرى وتسابقها على النفوذ والاستئثار بالامتيازات الواسعة فامتلأ صدره بالحقد على جميع النبلاء الروس وتحيّن الفرص الملائمة لضربهم بعنف.

النهضة الأوروبية

نصب في الساحة الحمراء في موسكو

المقر الروحي للكنيسة المسيحية الشرقية فأصبحت «روما الثالثة» بعد الڤاتيكان وبيزنطية.

مات إيڤان الثالث الكبير سنة ١٥٠٥ فخلفه على العرش ابنه باسيل الثالث من سنة ١٥٠٥ حتى ١٥٣٣ وكان حكمه امتداداً لحكم أبيه الراحل، خاصة لجهة تدعيم الحكم الأوتوقراطي والبيروقراطية الضاغطة.

ولدى موت باسيل الثالث سنة ١٥٣٣ كان وريثه وولي عهده إيڤان الرابع لا يزال في الثالثة من عمره، فأصبحت والدته وصية على العرش، ثم ما لبثت أن توفيت سنة ١٥٣٨ فحرم إيڤان الرابع من رعاية الأب وحنان الأم في أولى سنوات عمره وشعر بالوحدة ويتخلّي جميع الناس عنه. وسنة ١٥٤٧ كان إيڤان قد بلغ السابعة عشرة من عمره فتوّج أوّل قيصر على عموم روسيا وعُرف باسم إيڤان الرهيب.

في مستهل حكمه، شبَّ في مدينة موسكو حريق هائل أتى على ثلاثة أرباع المدينة. وهذه الكارثة حصلت إثر فترة جفاف أدَّت إلى نقص كبير في المحاصيل الزراعية فعمّت الاضطرابات والفتن الدموية الأقاليم الروسية بكاملها من جرّاء الجوع. وأقدم الفلاحون الفقراء، وكان أغلبهم أرقاء مرتبطين بأراضي الإقطاعيين، على مهاجمة المدن والقصبات الكبيرة ونهبها وتخريبها وقتل أسيادهم. ووجد إيڤان صعوبة كبيرة في السيطرة على الموقف لولا لجوئه إلى أشد أنواع القمع والعنف والوحشية. وقد استغل فترة الاضطرابات هذه لحصر جميع السلطات في شخصه وضرب طبقة النبلاء بقسوة فقلص من نفوذ أفرادها وألغى الكثير ممَّا كانوا يتمتعون به من امتيازات واسعة وشدَّد، في الوقت نفسه، قبضته على الفلاحين برفعه ثمن

النهضة الأوروبية

الإنتقام من النبلاء الروس

تحررهم من الرق. هكذا نجح في خنق مصادر الاضطرابات الفوقية والتحتية وأصبح حاكماً دكتاتورياً مطلقاً على امبراطورية مترامية الأطراف.

وأطلق إيڤان الرهيب لقب «قيصر» على نفسه فأصبح بذلك مسيطراً على روسيا الشمالية الموسكوفية وسائر الأقاليم الروسية والشعوب المجاورة وهذا ما أعطى طغيانه واستبداده أبعاداً خطيرة. كما أحاط إيڤان الرهيب نفسه بقوة خاصة من الحرس الامبراطوري بلغ عددها ألف عنصر أباح لهم أرواح الناس وأرزاقهم وأعراضهم فانطلقوا يعيثون فساداً في الأرض غير مفرّقين في استبدادهم بين النبلاء وبين عامة الشعب.

هذه السياسة التعسفية خلفت موجة استياء بالغ بين الأسر النبيلة تحوّل إلى ثورة عنيفة سنة ١٥٦٩ حين حاول النبلاء كبح جماح دكتاتورية إيڤان الرهيب ووضع حد لاستبداد زبانيته وحرسه الخاص. فأخمدت هذه الثورة بقسوة بالغة ووجد فيها إيڤان مناسبة للانتقام الدموي من النبلاء فقتل من قتل وسجن من سجن وجرَّد الباقين من رتبهم وامتيازاتهم الخاصة. ثم عمد إلى تكوين طبقة جديدة من الإداريين

النهضة الأوروبية

تضم حكام الأقاليم وكبار الموظفين والمقرَّبين من القصر. وأطلق يد الحكام للتنكيل بالفلاحين وإخضاعهم بالقوة للرق والاستعباد. كما أباح لكبار الموظفين حرية الاستبداد بصغارهم وتكديس الثروات غير المشروعة.

بعد ضربه نفوذ النبلاء وإحكام قبضته على الفلاحين، اتجه إيڤان الرهيب نحو الكنيسة الأرثوذكسية ذات النفوذ الواسع في روسيا. وسعى إلى كسب تأييدها ودعمها لسياسته الداخلية والخارجية وأقرَّ نظاماً كنسياً جديداً في مجمع عام صدر عنه تنظيم خاص في مئة مادة تحدِّد الوسائل الكفيلة بتحرير الكنيسة من عيوبها ومن حالة الفوضى المتفشية بين رجال الدين.

بعد انتهائه في إخضاع الشعب الروسي بكافة فئاته انتقل إيڤان نحو البلدان المجاورة لروسيا في كل من أوروبا وآسيا. وشن الجيش الروسي، في تشرين الأوَّل سنة ١٥٥٢ هجوماً كاسحاً على إقليم قازان وطرد المغول منه. وسنة ١٥٥٦ احتلّ إقليم استراخان وضمَّ الإقليمين إلى الدولة الروسية بالقوة. وبسبب المذابح التي ارتكبها الجيش الروسي في احتلاله لقازان واستراخان، أعلنت قبائل التتار القاطنة شرق نهر الفولغا والتي سبق واعتنقت الإسلام، ولاءها للقيصر الروسي.

ولأن مشكلة روسيا الكبرى كانت دائماً إيجاد منفذ لها على البحار الدافئة ولأنها لم تتمكن من تحقيق هذا الحلم في الجنوب من جهة البحر المتوسط بسبب قوة الامبراطورية العثمانية، عاد إيڤان الرهيب إلى مهاجمة ليتوانيا بعد تحررها من الاحتلال الروسي السابق للوصول إلى بحر البلطيق، لكنه اصطدم بالدول الأوروبية المجاورة: بولونيا، السويد، الدانمارك، الإمارات الجرمانية التي تكتلت ضد المطامع الروسية وأفشلت محاولات إيڤان للسيطرة على شواطىء البلطيق.

وتراكمت الصعوبات أمام إيڤان الرهيب في سنين حكمه الأخيرة فقد انهكت الحروب مع دول أوروبا الشمالية أنهكت ميزانية الدولة وأضعفت اقتصادها دون النجاح في الوصول إلى بحر البلطيق. لجأ الطاغية إلى فرض المزيد من الضرائب على الطبقات المعدمة والفلاحين الذين أكرهوا، بموجب قوانين تعسفية على البقاء طيلة حياتهم أرقاء يعملون في أراضي أسيادهم الإقطاعيين ورجال الدين دون أن يحق لهم الانتقال إلى المدن والعمل فيها.

وعندما مات إيڤان الرهيب سنة ١٥٨٤ انزاح ظله عن الشعوب الروسية ودخلت البلاد مرحلة من الاضطرابات والقلاقل والانتفاضات الفلاحية استمرت حتى مجيء بطرس الأكبر في مستهل القرن الثامن عشر، فأنقذ روسيا من حالة الفوضى ونجح في إنشاء الدولة الروسية الحديثة.

من نتائج هذا التنظيم البارزة كان تقوية سلطة الكنيسة الروحية والزمنية بشكل أرهق ثقله على السكان وتحوَّلت إلى نوع من الإقطاع الديني المتسلط، وبالتالي، أصبحت سنداً قوياً للحكم القيصري المستبد. وتسلط الكنيسة هذا كان من الأسباب المباشرة التي دفعت بالفلاحين الروس للالتفاف حول قادة الثورات الاشتراكية التي قامت في مستهل القرن العشرين وانتهت بالثورة الشيوعية سنة ١٩١٧.

● ألمانيا منقسمة كثيرة الاضطرابات:

جلب انهيار فكرة المسيحية الموحَّدة عواقب وخيمة على أقطار أوروبا وخاصة على ألمانيا. ولم يكن أباطرة ألمانيا من القومية الألمانية ففردريك الثاني آخر سلالة آل هوهنشتاوفن كان صقليا نصف مستشرق وآل هابسبرغ المتمثلين بشارل الخامس الذي كان بورغوندي الروح ثم إسباني النزعة. وبعد موته أخذ أخوه فرديناند النمسا والامبراطورية الجرمانية وأخذ ابنه فيليب الثاني إسبانيا والأراضي الواطئة وجنوبي إيطاليا، وكانت السلالة النمساوية كاثوليكية عنيدة، ممسكة بزمام معظم ميراثها على الحدود الشرقية متورطة بشكل عميق في الشؤون الهنغارية دافعة الجزية للأتراك شأن فرديناند وخليفته. لذا لم تحتفظ لنفسها بأي سلطان على شؤون الألمان الشماليين الذين كانوا ميالين إلى البروتستانتية متجهين نحو الغرب جاهلين الخطر التركي أو غير مهتمين به.

النهضة الأوروبية

وكان التاج الإلماني في كل الحالات كاثوليكياً أو ميالاً إلى الكثلكة. فإذا بالأمراء المشاكسون يميلون نحو البروتستانتية كل بمفرده. لكن الامبراطور في إلمانيا لم يبلغ من القوة والسيادة مبلغاً كافياً ولا كان لدى الأمراء البروتستانت من الوحدة والتنظيم، فيما بينهم، ما يكفل لأحد الطرفين نصراً نهائياً. فانتهت الحال إلى تمزيق أوصال ألمانيا.

وزاد الكفاح الألماني تعقيداً اشتراك شعوب غير إلمانية منوعة فيه: البوهيميون والسويديون الذين كانت لهم ملكية بروتستانتية جديدة نشأت في ظل جوستافوس ڤازا كنتيجة مباشرة للإصلاح الديني. وأخيراً تدخلت الملكية الفرنسية، بعد انتصارها النهائي على نبلائها، فعضدت البروتستانت رغم كونها كاثوليكية بهدف الحلول محل آل هابسبرغ في تبوء عرش الأمبراطورية.

وطالت حرب الثلاثين سنة وتعددّت ساحات معاركها وامتدّت وتناثرت في أرجاء امبراطورية مقسّمة إلى رقاع: فمن بروتستانت هنا إلى كاثوليك هناك، حتى تحوّلت إلى حرب من أقسى الحروب وأشدها تدميراً، حرب لم تشهد أوروبا لها مثيلاً منذ أيام الغارات الهمجية المغولية.

سنة ١٦٤٨ اجتمع الأمراء والسياسيون، إثر ذلك الدمار الذي حاكته أيديهم، لترقيع شؤون أوروبا الوسطى في صلح وستفاليا. وفيه تحولت قوة الامبراطور إلى شبح أو خيال واستلحقت الألزاس بفرنسا حتى نهر الراين واستحوذ منتخب براند نبرغ من آل هو هنزولن على قدر عظيم من الأراضي جعل قوته تضاهي قوة الامبراطور وسرعان ما كوّن مملكة بروسيا سنة ١٧٠١. كما اعترفت معاهدة وستفاليا بحقيقتين قديمتين هما انفصال هولندا وسويسرا عن الامبراطورية الألمانية.

وبريطانيا. لكن الملكية الاستبدادية في فرنسا وروسيا وفي كثير من أنحاء ألمانيا وإيطاليا ـ في سكسونيا وتوسكانا مثلاً ـ لم تقهر وتُصدّ بمثل تلك الدرجة بل إنها، في الواقع، وطدت نفسها بوصفها النظام الأوروبي السائد في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

ولم يكن في فرنسا ثمة «عهد أعظم» (ماجنا كارتا) ولا كان للحكم البرلماني فيها تقاليد محدّدة فعّالة. صحيح أنه كان هناك تعارض مصالح بين التاج من ناحية وبين أصحاب الأراضي والتجار من ناحية أخرى. لكن هؤلاء لم يكن لهم مكان اجتماع معترف به ولا أسلوب كريم للوحدة. بل شكلوا ألواناً من المعارضة للتاج وعُصباً للمقاومة. كما حصل في «الفروند» حيث راحوا يكافحون ضد الملك الشاب لويس الرابع عشر ووزيره العظيم مازارين، في الوقت الذي كان شارل الأول يقاتل فيه لإنقاذ حياته في انكلترا، لكن النبلاء الفرنسيين هزموا سنة ١٦٥٢ هزيمة نهائية بعد حرب أهلية..

حروب الفروند هي حروب أهلية فرنسية دارت رحاها بين سنة ١٦٤٨ ـ ١٦٥٣، وتقع في مرحلتين: الأولى، محاولة إنشاء برلمان باريس سنة ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩. والثانية، مرحلة تحديد سلطات الملك وثورة كبار النبلاء برئاسة كونديه على حكم مازارين سنة ١٦٥٠ و١٦٥٣.

يصف دانيال ديفو في الفصول الأولى من كتاب «مذكرات فارس»، مذبحة ماجد بورغ وحريقها. ويعطينا فكرة عن أسلوب الحروب في ذلك الزمان: فالبلاد بلغت من الخراب حداً حمل الفلاحين على الكف عن الزراعة، وما كان يستطاع حصده من المحصولات السريعة غير المنتظمة كان يُخفي قورجمعه. وتحوّلت جماهير غفيرة من النساء الطاويات والأطفال الجائعين إلى حاشية من اللصوص الناهبين بدهاء وشراسة وخشونة تتبّع معسكرات الجيوش. وحين انتهى الصراع تحوّلت ألمانيا إلى خراب تام ولم تتخلص أوروبا الوسطى تخلصاً تاماً من هذه السرقات والمفاسد إلاّ بعد قرن من الزمن.

● عصر الملكية العظمى في أوروبا:

نجح المواطن في مقاومة الملكية المكيافيلية، في الأراضي الواطئة

النهضة الأوروبية

الإضطهاد

وبعد زمان مازارين أصبح النبلاء الفرنسيون يكونون حشماً للملك وموظفين: فقد روّضوا وتم شراؤهم بثمن هو إلقاء عبء الضرائب على جماهير عامة الشعب الذين لا صوت لهم. وبات كل رجل دين أو نبيل يحمل لقباً معفىً من الضرائب. وأصبح هذا الظلم أمراً لا يطاق. لكن الملكية الفرنسية ازدهرت ردحاً من الزمن. ورسّخت «الملكية العظمى» أسُسَها وحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم ردحاً طويلاً من الزمن امتد حتى اثنين وسبعين عاماً، من ١٦٤٣ حتى ١٧١٥ ونصّب نفسه نموذجاً احتذى به كل ملوك أوروبا. في بداية حكمه كان يتبع آراء واستشارات وزيره الكاردينال مازاران، وبعد وفاة الوزير المذكور أصبح هو نفسه بشخصه ونصّه «الأمير» المثالي. وكان طموحه قوياً فانتهج سياسة خارجية معقدة جرّت على بلاده الإفلاس إذ خالجته رغبة ربط أجزاء فرنسا بعضها ببعض ومد حدودها إلى نهر الراين وجبال البيرنيه بما فيه الأراضي الواطئة الإسبانية.

وبينما أصبح في أنكلترا الحكم بيد مجلس اللوردات ومجلس العموم، بعد وصول آل هانوفر إلى الحكم، فإن البلاط في فرنسا على العكس من ذلك، أصبح هو صاحب السيطرة التامة على الأرستقراطية، بعد سنة ١٦٥٢. وقد بنى الكاردينال مازارين أسس هذا الحكم بعد أن مهّد الطريق له الكردينال ريشليو معاصر جيمس الأول في انكلترا.

حفز قصر فرساي الجميع على محاكاته. فكل ملك أو أمير صغير في أوروبا كان يبني لنفسه قصراً خاصاً شبيهاً بقرساي لويس الرابع عشر، متجاوزاً موارده المالية بالقدر الذي يسمح به رعاياه ودائنوه. وكان النبلاء، في كل مكان، يعيدون بناء قصورهم أو يوسعونها وفق النموذج الجديد وتطورت صناعة الأقمشة والأثاثات الجميلة المحكمة الصنع وعظم شأنها. وازدهرت فنون الترف في كل مكان. فدرجت تماثيل الرخام المجزّع والقاشاني وأشغال الخشب المذهب وأشغال المعادن والجلد المضغوط بالنقوش البارزة. وكان السادة يتبخترون بين المرايا والأثاث البديع في شعور مستعارة ضخمة مذرورة بالمساحيق وحرائر ومخرمات وهم يتمايلون في كعوب عالية حمراء ويتوكأون على عصى باهرة. أما السيدات فكن أكثر إدهاشاً وإعجاباً تحت أبراج من الشعور المغطات بالمساحيق وفي أثواب واسعة من الحرير والساتان تحملها الأسلاك. وكان يتجلى وسط كل هذا لويس العظيم «الملك الشمس»، غير شاعر بالوجوه الهزيلة المتجهمة المريرة التي كانت ترقبه من الظلمات الدنيا التي لم تخترق حجبها شمس ضيائه.

النهضة الأوروبية

الكرملين

واتخذ لويس الرابع عشر من الرشوة وسيلة للحكم تضاهي بأهميتها الحرب: فكان شارل الثاني ملك انكلترا يأخذ منه المنح المالية وكذلك معظم النبلاء البولنديين. هكذا كانت نقوده، نقود الطبقات الفقيرة التي تدفع الضرائب الباهظة في فرنسا، تذهب كل مذهب. فالبذخ كان شغله الشاغل وقصره العظيم في ڤرساي بصالوناته وقاعاته ودهاليزه ومراياه وشرفاته ونافوراته وحدائقه موضوع إعجاب العالم ومحط أنظاره.

وحروب لويس الرابع عشر عديدة وأعماله متعددة: فقد أنشأ البحرية الفرنسية لمقاتلة الإنكليز والهولنديين، وطمح، مثل كل السياسيين في أوروبا آنذاك إلى قيام «امبراطورية مقدسة» تشمل العالم كله، فتحول في سنواته الأخيرة إلى استرضاء البابوية التي كانت معادية له حتى ذلك الحين، ونصب نفسه مدافعاً عنها ضد المستقلين والمنفصلين وهكذا أشعل نار الحرب على البروتستانتية في فرنسا ففرَّ أمراؤها، هرباً من اضطهاده لهم جماعات وفيرة العدد حاملين معهم فنونهم وصناعاتهم: فصناعة الحرير الإنكليزية مثلاً أسسَّها بروتستانت فرنسيون.

وكان من ميزات الملكية العظمى نصرتها للآداب والعلوم. فقد أقام لويس الرابع عشر أكاديمية للعلوم نافس فيها الجمعية الملكية الإنكليزية التي أنشأها شارل الثاني وجمعية فلورنسا. وزين بلاطه بالشعراء وكتَّاب المسرحيات والفلاسفة ورجال العلم، وكان هؤلاء يحصلون على موارد مالية تعينهم على التجربة والنشر.

ومات «الملك ـ الشمس» سنة ١٧١٥ فخلفه لويس الخامس عشر وهو

النهضة الأوروبية

ابن حفيده والمقلّد غير الكفء لفخامة سلفه العظيم: فقد قلّد لويس الرابع عشر بجلاله لكنه كان فاسداً يطارد النساء، وكانت الحروب تنشب والمحالفات تُعقد والمقاطعات يعيش فيها الفساد وآلاف من الناس يقتلون إرضاء لغرور هذه أو تلك من خليلات الملك. وتلوّثت الحياة العامة في فرنسا وأوروبا عامة بالدسائس والبغاء والاحتيال.

وسنة ١٧٧٤ مات لويس الخامس عشر بداء الجدري وخلفه على العرش حفيده لويس السادس عشر (١٧٧٤ ـ ١٧٩٣) وكان رجلاً غبياً حسن النية، وصاحب طلقة نارية بديعة التسديد وصانع أقفال هاوٍ على شيء من المهارة. وسنتحدث في ما بعد عن قصة وصوله إلى المقصلة حين حصول الثورة الفرنسية.

المملكة البروسية

ننتقل الآن إلى مملكة عظيمة أخرى هي المملكة البروسية ومؤسّسها فردريك وليم الأوّل الذي تولّى الحكم من ١٧١٣ ـ إلى ١٧٤٠ وابنه فردريك الثاني، أي فرديريك الأكبر الذي حكم من ١٧٤٠ إلى ١٧٨٦. ومملكة بروسيا بدأت بداية عادية مملّة بعض الشيء لكن الحظ والعنف والدعاوى الجريئة والخيانات المباغتة جعلت منها في القرن الثامن عشر على درجة من الأهمية هددت معها الامبراطورية وكان لها جيش قوي حسن التدريب وأعطى ملكها ماكيافيللي حظاً كبيراً وعناية. كما جعل فردريك من قصر بوتسدام ثرسايا آخر بلغ به حد الكمال. وبلغت حدائق «سان سوسي» بنوافيرها وشوارعها المزدانة بالأشجار وتماثيلها حداً قصياً في تقليدها النموذج المرنسي. وأنشيء قصر جديد هائل من الطوب أنفقت في تشييده أموال طائلة وكذلك «الأورانجري»، وهي مبنى من الزجاج يساعد بدفئه شجر البرتقال على النمو، وهو إيطالي الطراز وفيه مجموعة من الصور كما كان فريدريك على درجة عالية من الثقافة بلغت به حد التأليف وتبادل المراسلات مع ڤولتير.

أما الامبراطورية النمساوية فقد انشغلت على الدوام بين مطرقة الفرنسيين وسندان الأتراك لدرجة لم تطوّر معها الملكية العظمى حتى عهد ماريا تيريزا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٠) ثم خلفها جوزيف الثاني الذي تولّى الامبراطورية من ١٧٦٥ إلى ١٧٩٠.

وفي الامبراطورية الروسية المسكوفية ظهر بطرس الأكبر ودفعها إلى التخلّي عن تقاليدها التتارية وأدخلها فلك الجاذبية الفرنسية فحلق لحى النبلاء وألبسهم الزي الأوروبي. ولكي يحرّر نفسه من تقاليد موسكو الأسيوية ومن الكرملين فيها، بنى لنفسه عاصمة جديدة هي بتروغراد على مستنقع النيڤا. وشاد لنفسه ثرساياً آخر هو قصر البيتروهوف على مسافة ثمانية عشر ميلاً من بيتروغراد واستخدم لذلك مهندساً معمارياً فرنسياً وأنشأ شرفة (تڑاس) ونوافير ومساقط مائية وبهواً للصور وجنائن. وكان من أبرز خلفائه اليزابيت (١٧٤١ ـ ١٧٦٢) وكاترين العظيمة وهي أميرة إلمانية عادت بعد الحصول على التاج بطريقة غير شرعية هي قتل زوجها القيصر الشرعي وكانت منحرفة في حكمها وحكمت بشدة متناهية من ١٧٦٢ ـ ١٧٩٦ وأقامت أكاديمية وتراسلت مع ڤولتير وعاشت حتى شهدت نهاية الملكية العظمى في أوروبا وإعدام لويس السادس عشر.

هكذا حكم ملوك أوروبا ممالكهم كما يحكم نبلاؤهم مزارعهم. يتامرون بعضهم على بعض ويخوضون الحروب ويبددون الطاقة الأوروبية في سياسات سخيفة. إلى أن انتهى الأمر بانفجار عاصفة هوجاء بوجههم. تلك العاصفة كانت الثورة الفرنسية التي

يضيق المقام عن تقديم قائمة بأسماء صغار «الملوك العظماء» في فلورنسا (توسكانا) وسافوي وساكسونيا والدانمارك والسويد. كما يضيق المقام عن معالجة حرب الوراثة الإسبانية. لأن إسبانيا قد أجهدتها مشروعات التوسع الامبراطوري التي دبرها شارل الخامس وفيليب الثاني وأضعفها العداء الذي أظهرته نحو البروتستانت والمسلمين واليهود. هكذا هبطت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر من دولة مهمّة لها مكانتها في الشؤون الأوروبية إلى دولة من الدرجة الثانية.

النهضة الأوروبية

جعلت العامة في أوروبا تنتفض غاضبة وتقضي على الملكية لتحل محلها أنظمة حكم ديموقراطية.

فى أواخر القرن الثامن عشر كان جزء كبير من العالم ما يزال بعيداً عن خضم الحضارة الأوروبية. وكانت مناطق كثيرة من العالم قبلة أنظار الأوروبيين الذين كان يحدوهم حب الاكتشاف والتوسع وحب الاستثمار والربح للتطلع نحوها: فسنة ١٧٩٠ ـ ١٧٩٢ بدأت اكتشافات مارشان لاوقيانيا وسنة ١٧٩٨ ـ ١٨٠٣ بدأت رحلات انتركاستو وبدأ فلندرز يجوب شواطىء أوستراليا بعد أن كان أرثور فيليب قد أنشأ مدينة سيدني عام ١٧٨٨. أما إسبانيا فاندفعت نحو الفيليبيين وشواطىء أميركا وأخذت توفد البعثات إليها بين أعوام ١٧٨٩ ـ ١٧٩٤. وفي أميركا الشمالية كان هم ه كيتري بلوغ المحيط الهادىء وهذا ما تحقق له سنة ١٧٩٨ أما روسيا فقد سعت للتوغل داخل الصين لتجعل من «ورسبرغ» مركزاً لانطلاق نفوذها السياسي وسيطرتها على آسيا الوسطى وخاصة الهند وبلاد فارس.

وكان «السراب الأميركي» يجتذب فرنسا. وأفريقيا السوداء تستهوي انكلترا لدرجة أن بعض الرأسماليين وبعض العلماء أسسوا جمعية في لندن عام ١٧٨٨ هدفها اكتشاف المجاهل الأفريقية واستثمارها تحت ستار القضاء على الرق.

وكانت البواعث التي جعلت أوروبا تتطلع نحو تلك المناطق النائية مزيجاً من حب التبشير ونشر الحضارة وتوقاً إلى تمكين مركزها المالي والاقتصادي: فالهند كانت مورداً لأموال لا تنضب تصب تارة في انكلترا فتوظفها قروضاً أو في أعمال صناعية وإنشائية، وتارة في فرنسا وأخرى في روسيا. وكانت إسبانيا تعتمد على موارد مستعمراتها وخيراتها لتدعيم مركزها المالي إذ كانت تجني مداخيل وافرة بلغت عام ١٨٠٠ حوالي العشرين مليوناً. وكانت فرنسا تتوق للإفادة من موارد الشرق وخاصة من مركز مرسيليا كونها كانت نقطة اتصال بين أساكل الشرق وأسواق الغرب: فكانت تتلقى في مرافئها بضائع تركية وغيرها. كما كانت فرنسا شغوفة بجزر الأنتيل وسان دومنغو مصدر السكّر واعتمدت إنكلترا على إعادة تصدير منتجات مستعمراتها وحصلت على أرباح جمّة بلغت بين عامي ١٧٨٢ ـ ١٧٩٠ عشرين مليون ليرة استرلينية

لكن أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر كانت تشكو من تباعد واضح بين تطورها الصناعي والتجاري وتطورها السياسي والاجتماعي.

كما كان هناك خلل في التوازن بين القوى الاقتصادية في بعض المناطق وبين وضعها الجغرافي والسياسي.

ورغم قوة تلك الدول العسكرية كانت ضعيفة في استثمار قدرتها وطاقتها الاقتصاديتين: فروسيا مثلاً، رغم ضخامة إمكاناتها العسكرية كانت تشكو من ضعف ماليتها ومن قلة الطرق التي تمكنها من الإفادة بسرعة من عدتها وتجهيزاتها. وإنكلترا عدّلت نظام تسلحها بعد نهاية حرب الاستقلال الأميركية وخفّضت عدد وحداتها العسكرية وإسبانيا كانت تشكو من عدم التكافؤ بين قواها الحربية وبين متطلبات سياستها لتدعيم وضعها الخارجي والمحافظة على مستعمراتها الشاسعة. وفي فرنسا كان البذخ والتبذير علة أهل البلاط وديدن أمرائها.

● الثورة الفرنسية ١٧٨٩ :

في جو التفاعل المعقد هذا بين البلاطات والسياسات التي كانت مسيطرة على أوروبا حدثت فتنة في فرنسا، مهد الملكية العظمى وموطنها وقلب أوروبا ومركزها تلك هي الثورة الفرنسية التي نبتت جذورها ونمت من سخافات الملكية ومطامعها، فخطط التوسع وأغراض الملك الأعظم وتدبيراته استلزمت من الأنفاق على عتاد الحرب في كل أرجاء أوروبا ما يتجاوز كل تناسب مع طاقة العصر في الضرائب. فضلاً عن كون ترف الملكية ومظاهر بذخها كلّفت نفقات باهظة قياساً مع إنتاج ذلك الوقت.

ولم تكن المقاومة في فرنسا، كما في بريطانيا وأميركا، موجهة ضد الملك بوصفه ملك ولا ضد سياسته الخارجية بوصفها سياسة خارجية بل ضد ما يتسبب عنها من مضايقات وتكاليف تلم بحياة الأفراد. وظهر في فرنسا، في ذلك الوقت، قدر كبير من

النهضة الأوروبية

الثورة الفرنسية

التفكير الحر والخطابة الحرة والعاطفة: فقام مونتسكيو في النصف الأوّل من القرن الثامن عشر (١٦٨٩ - ١٧٥٥) ووضع النظم الاجتماعية والسياسية والدينية تحت الفحص والتحليل الجوهري وخاصة في كتابة «روح القوانين».

وتألفت جماعة من أذكياء الكتاب هم «الموسوعيون» وكان معظمهم ذو روح ثائرة وبقيادة ديدرو Diderot نهضوا لوضع الخطط لعالم جديد بواسطة مجموعة من المؤلفات (سنة ١٧٦٦).

وإلى جانب الموسوعيين، قام جماعة الاقتصاديين أو الفيزيوقراطيين الذين قاموا بأبحاث جريئة في شؤون إنتاج الطعام والبضائع وتوزيعها ولا يغربنَّ عن بالنا تأثير روسُّو في قلوب الناس: فقد بشَّر بمبدأ جذاب قائل بأن حالة الإنسان البدائية كانت حالة فضيلة وسعادة لكن نشاط الملوك والقساوسة والمحامين جعله يتخلَّى عنها. وقد مسَّ روسُّو في كتابه «العقد الاجتماعي» البناء الاجتماعي القائم وقوَّض أسسه واعتبر أن لا شيء يؤكد ضرورته. ونظرة روسُّو هذه ساعدت على إشاعة طريقة عاطفية وشديدة الجرأة في معالجة المسائل السياسية والاجتماعية.

وعام ١٧٨٧ حصل أول إشكال هزَّ الحياة في فرنسا: كان لويس السادس عشر الذي حكم من ١٧٧٤ إلى ١٧٩٣ ملكاً غبياً سيء التعليم وكان متزوجاً من امرأة حمقاء مبذرة هي ماري أنطوانيت شقيقة الإمبراطور النمسا. وحين

> يقول ماليه: «إن مجد الموسوعيين ينحصر في كراهيتهم لكل جور وظلم وفي تشهيرهم بتجارة الرقيق وعدم المساواة بين الناس في الضرائب، وفساد العدالة والدمار الذي تجره الحروب... أما غلطتهم الرئيسية فكانت في مناصبتهم الأديان العداء.

النهضة الأوروبية

إحراق قصور النبلاء .

استنفذت موارد وزارة المالية في الحرب الأميركية، وكانت البلاد بأسرها تتقلب على جمر التذمر والقلق استغلت كل سلطاتها لغل أيدي الوزراء عن أية محاولة للاقتصاد، ولتشجيع كل نوع من أنواع الإسراف الارستقراطي ولإعادة الكنيسة والنبلاء إلى المركز الذي كانوا يتبوأونه في أيام لويس الرابع عشر العظيمة. وجرت محاولة لخنع الضبط عبير الأرستقراطيين ولبسط سلطة الكنيسة على الحياة الخاصة. ووجدت ماري أنطوانيت في كالوني المثل الأعلى لوزير ماليتها. فإذا به منذ سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٧٨٧ ينتج النقود بطريقة تشبه

النهضة الأوروبية

السحر أيضاً عن طريق الاقتراض ثم انهار سنة ١٧٨٧ بعد أن طبق القرض فوق القرض. عند ذلك أعلن أن الملكية قد أفلست ولم يعد بالإمكان جمع أي نقود جديدة وأنه لا بد من عقد جمعية من ذوي الرأي والمكانة في المملكة للنظر في الموقف.

ثم قدم كالوني مشروعاً، إلى جمعية من القادة والزعماء دُعيت للانعقاد، بأحد صيف ١٧٨٧ على كل عقار من الأرض فأثار ذلك الأرستقراطيين إلى درجة عظيمة من الغضب. فطالبوا بدعوة هيئة شبيهة بالبرلمان الإنكليزي، هي «مجلس الطبقات» الذي لم يجتمع منذ ١٦١٤ وأصر ذوو المكانة الفرنسيون على رفض المشروع غير مدركين إلى أنهم أنشأوا بذلك طريقاً لتعبّر طبقات الشعب عمّا يخالجها من تذمُّر.

وبينما كان «مجلس الطبقات» يجتمع في ڤرساي في قاعات مهملة أعلن البعض أنها وحدها هي الممثلة للشعب وأنه ينبغي ألاّ تجبى أية ضرائب، بعد ذلك الحين، إلاّ بعد أن تقرّها هي. عند ذلك أغلق الملك القاعة التي كانت تجتمع فيها وأعلن أنه يحسن بالنواب أن ينصرفوا إلى منازلهم وبدلاً من ذلك اجتمع النواب في ملعب التنس وهناك أقسموا يميناً هو يمين ملعب التنس: ألا يتفرقوا حتى ينشؤوا لفرنسا دستوراً. واتخذ الملك مظهر القوة وحاول أن يفرق اجتماع الطبقة الثالثة عنوة. لكن الجنود رفضوا أن يطيعوا. عند ذلك خضع الملك بشكل فجائي وقبل بأن تناقش الطبقات الثلاث المشروع وأن تعطي صوتها بصفتها جمعية وطنية واحدة. وفي الوقت نفسه، وبتحريض من الملكة، نُقِلت فرق أجنبية تعمل في خدمة الجيش الفرنسي يعتمد عليها في العمل ضد الشعب واستعدّ الملك للتراجع عن موقفه: فتمرّدت باريس والمدن الفرنسية الأخرى وأقيمت حكومات مؤقتة في باريس وفي معظم المدن الكبرى وأنشأت تلك الحكومات قوة مسلحة جديدة هي الحرس الأهلي وهي قوة معدَّة أولاً بشكل ظاهر لمقاومة قوات العرش.

وشكل عصيان شهر حزيران ١٧٨٩ الثورة الفرنسية الحقيقية فقد استولى شعب باريس عنوة على سجن الباستيل وانتشر التمرد سريعاً في أرجاء فرنسا كافة. وأحرق الفلاحون في المقاطعات الشرقية والشمالية الغربية معظم قصور النبلاء ودمروا صكوك ألقابهم وقتلوا أصحاب القصور أو طردوهم منها. ولم يمض شهر حتى كان نظام الأرستقراطية البالية قد انهار. وفرّ إلى الخارج كثير من كبار الأمراء ورجال البلاط من حزب الملكة. ووجدت الجمعية الوطنية نفسها تدعى لإنشاء نظام جديد سياسي اجتماعي يلائم العصر الجديد.

واجهت الجمعية الوطنية صعوبات عديدة في بداية عهدها: فالملك والبلاط يصرّان على العدوانية، والكنيسة هيئة موحدة عظيمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام القديم والملكة على اتصال دائم بالأمراء المبعدين الذين كانوا يحاولون أن يحملوا النمسا وبروسيا على مهاجمة الشعب الفرنسي الجديد، كما كانت فرنسا قطراً مفلساً.

لكن الجمعيّة أحرزت نجاحاً عظيماً، رغم الصعوبات المحدقة بها: ففي ٤ آب أصدرت سلسلة من القرارات: إلغاء نظام موالي الأرض والامتيازات والإعفاء من الضرائب والعشور ومحاكم الإقطاع. وبعد أسابيع من ذلك صدر «إعلان حقوق الإنسان». وشرع البلاط يدبر المؤامرات لإحداث انقلاب رجعي، وراح فيليب دورليان ابن عم الملك يخطط ويدبّر مؤامرات خسيسة مستخدماً الخلافات للحلول محل لويس على العرش الفرنسي. وفتح حدائقه في الباليه رويال للجمهور وأصبحت مركزاً عظيماً للمناقشات المتطرفة وراح أتباعه يحرضون الشعب على الملك وبلغت الأمور حدّها حين حصل نقص حاد في المواد الغذائية التي اعتبرت حكومة الملك مسؤولة عنه.

وظهرت في ڤرساي الفرقة الفلاندرية الموالية للملك وكانت الملكية تستعد للابتعاد عن باريس والعودة إلى التبذير والاستبداد. وهذا ما أزعج الملكيين الدستوريين مثل الجنرال لافييت. وفي الوقت نفسه اندلع غضب الناس لقلة الطعام. وهاج الناس بسبب شائعات عن قيام مأدبة في ڤرساي. وظهر شخص اسمه ما يّار قدير في التنظيم فتزعم مع الجنرال

النهضة الأوروبية

لافاييت تظاهرة شعبية حاشدة انطلقت عند الأصيل في رحلة أحد عشر ميلاً نحو فرساي. وبوصول المتظاهرين إلى هناك حصل قتال مع الحرس الخاص ودخل المحاصرون القصر وأوشكوا على ذبح الأسرة المالكة لكن لافاييت وجنوده وصلوا، في الوقت المناسب، وحالوا دون ذلك، ووصلت عربات محمَّلة بالخبز واستقرَّ الرأي على وجوب انتقال الملك إلى باريس. كان ذلك في ٦ تشرين الأول ١٧٨٩ وأقامت الأسرة المالكة في التويلوري قرابة سنتين وأصبحت فرنسا ملكية مقيدة وطفقت الجمعية الوطنية تحكم قطراً شمله السلام.

وفي إحدى ليالي شهر حزيران سنة ١٧٩١ انسل الملك والملكة وطفليهما بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل متنكرين من قصر التويلري واخترقوا باريس وجلين واتجهوا من شمال المدينة إلى الشرق ووصلوا إلى عربة سفر كانت معدَّة لنقلهم إلى شالون للانضمام إلى جيش الشرق الذي كان قائده وضباطه موالين للملك ومستعدين للقتال ولكن الخطة فشلت إذا اتضح أمر الهاربين. فأعيد الملك وعائلته إلى باريس مهيضاً ذليلاً وقابلته الجماهير في صمت وسكون ثم سرت بين الجماهير موجة سخط فراحوا يطالبون ويهتفون بقتله.

وقويت شوكة اليعاقبة بسرعة وشرع زعماؤهم روبسبيير ودانتون ومارا يتسلطون على الشؤون الفرنسية. وكان زعماء حزب اليعاقبة رجالاً لا أملاك لهم ولا قيد يغل أيديهم: فروبسبيير كان محامياً شاباً فقيراً ذكياً من أراس وكان أثمن ما يملكه هو إيمانه بروسو، وكان دانتون محامياً هو الآخر في باريس وكان فقيراً هو الآخر وضخماً وبليغ العبارة ميالاً إلى الخطابة، ومارا كان رجلاً مسناً، سويسرياً قضى سنوات عديدة في إنكلترا وكان يحمل شهادة الدكتوراه الفخرية في الطب من جامعة سانت أندروز وله في علم الطب بعض مقالات قيمة.

وحين اقترب موعد إحلال الجمعية التشريعية محل الجمعية الوطنية تطبيقاً للدستور، اقترح اليعاقبة، بقصد تمزيق شمل المعتدلين ألاَّ يكون لأحد من أعضاء الجمعية الوطنية الحق في عضوية الجمعية التشريعية وانضم إليهم الملكيون بقصد جعل الهيئة الجديدة خالية من كل تجربة وخبرة فيعود عليهم ذلك بالخير وتهوي فرنسا من جديد بين أيديهم.

في تلك الأثناء، اجتمع ملك بروسيا وامبراطور النمسا سنة ١٧٩١ وأصدرا تصريحاً جاء فيه أن عودة النظام الملكي في فرنسا أمر بالغ الأهمية لدى كل الملوك. وسُمِح لجيش من المهاجرين والنبلاء الفرنسيين وسراتهم بالتجمع على مسافة قريبة من الحدود.

وكانت فرنسا هي البادئة بإعلان الحرب على النمسا. وكانت دوافع من ناصروا هذه الحركة متنازعة: الجمهوريون لرغبتهم في تحرير سكان بلجيكا من النير النمساوي، والملكيون لرغبتهم في إعادة هيبة الملكية وسلطانها عن طريق الحرب. وحده مارا عارض الحرب بمرارة. وفي ٢٠ نيسان ١٧٩٢ جاء الملك إلى الجمعية واقترح بين مظاهر الاستحسان العظيم إعلان الحرب.

لكن الحرب ابتدأت بكارثة: فالجيوش الفرنسية الثلاثة كانت بقيادة لافاييت. وأعلنت بروسيا الحرب مؤازرة منها للنمسا واستعدت الجيوش المتحالفة لغزو فرنسا تحت قيادة الدوق برونزويك وأصدر الدوق إعلاناً من أشد إعلانات التاريخ نزقاً كان كافياً لتحويل أشد الفرنسيين ملكية إلى المذهب الجمهوري، أثناء الحرب على الأقل. وأصبح من المحال

واستولت الدولة على جميع ما كان للكنيسة من أملاك ضخمة وأخذت تديرها بنفسها وقوضت كل المؤسسات الدينية التي لا تشتغل في حقل التعليم والإحسان وجعلت مرتبات رجال الدين فرضاً على الأمة. وأعجب ما فعلته الجمعية الوطنية أنها أصدرت مرسوماً يقضي بأن لا يكون أي عضو من أعضائها وزيراً تقليدياً. وذلك على غرار الدستور الأميركي. وتسبب هذا الفصل بين الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية بالكثير من سوء التفاهم وعدم الثقة. وغدت أكثر الكومونات في الأحياء والمدن تحكم نفسها بنفسها وكانوا يقبلون أوامر باريس أو يرفضونها حسب مزاجهم ويرفضون دفع الضرائب.

النهضة الأوروبية

باريس في الليل

استمرار جهود الجمعية التشريعية، وبقاء الحكومة أصبح، مستحيلاً واجتمع العصاة في دار البلدية وهاجموا قصر التويلوي وتصرف الملك بغباء سمح وكان معه حرس سويسري مكوّن من ألف رجل فصمد صموداً مبهماً حتى ابتدأ إطلاق النار ثم انتقل إلى دار الجمعية التشريعية المجاور له ليضع نفسه وعائلته تحت حمايتها. وقاتل السويسريون حتى تلقوا من الملك أمراً بالكف عن القتال، فأعمل الجمهور فيهم قتلاً حتى قضى على معظمهم. وتسلّم كومُون باريس مقاليد السلطان في فرنسا وأصدرت الجمعية التشريعية مرسوماً يقضي بإيقاف الملك عن القيام بمهام عمله وأودعته المعبد واستبدلت به لجنة تنفيذية ودعت مؤتمراً وطنياً لإقرار دستور جديد.

في تلك الأثناء، كانت كل جيوش فرنسا الوطنية تنهزم على الطريق المؤدية إلى باريس في حالة يأس واستسلام، وسقطت لونجري وعقبتها قلعة ڤردان العظيمة وما كان هناك أي احتمال لإيقاف تقدم جيوش الحلفاء نحو العاصمة. وتضاعف الإحساس بالخيانة الملكية فكان لا بد من إسكات الملكيين وغل أيديهم وإرهابهم حتى يختفوا عن الأنظار ونصب كومُون باريس نفسه لمطاردة كل ملكي يمكن العثور عليه حتى اكتظت بهم سجون باريس.

وفي الوقت نفسه كان الجنرال الفرنسي دوموريه يهرع بأحد الجيوش مسرعاً من فلاندر إلى غابة الأراجون ويرد جيوش الحلفاء إلى ما وراء ڤردان. وحدثت عند ڤالمي في ٢٠ أيلول معركة أنطوت في الغالب على تبادل إطلاق المدافع وأوقف تقدم بروسي وثبتت المشاة الفرنسية في مكانها لأن مدفعيتهم كانت أفضل. وظل دوق برونزويك بعد ذلك عشرة

النهضة الأوروبية

أيام وهو يقدم رجلاً ويؤخّر أخرى، ثم أخذ ينسحب إلى الراين. هكذا تم إنقاذ الثورة.

والتأم المؤتمر الوطني في ٢١ أيلول ١٧٩٢ وأعلن من فوره الجمهورية ولم تكد تلك الأحداث تنتهي حتى تمت محاكمة الملك وإعدامه: فقد قطع رأسه في أيار سنة ١٧٩٣ بالمقصلة التي أصبحت منذ آب ١٧٩٢ أداة الإعدام الرسمية في فرنسا.

وتوقّد لهيب عظيم من الحماس لفرنسا والجمهورية: ففي الداخل أزمع القوم على القضاء على الملكيين. وفي الخارج صمّموا على أن تكون فرنسا حامية كل الثوريين ومعينتهم لتصبح أوروبا كلها بل الدنيا كلها جمهورية. وإنثال شباب فرنسا إلى الجيوش الجمهورية انثيالاً وانتشرت في كل أرجاء البلاد أغنية جديدة هي أغنية «المارسييز». وقبل أن ينتهي عام ١٧٩٢ كانت الجيوش الفرنسية قد بلغت مدى تجاوز ما أحرزه الملك لويس الرابع عشر: كانوا في بروكسيل واجتاحوا الساڤوا وأغاروا على مايانس واستولوا من هولندا على الشلت.

وحين طردت انكلترا ممثل فرنسا لديها، إثر إعدام الملك، أعلنت فرنسا الحرب على إنكلترا. لكن هذه الفعلة كانت خرقاء: فالثورة أعطت فرنسا جنوداً مشاة متحمسين ومتدفعين متحرّرين من الضباط الأرستقراطيين ومن كثير من التقاليد المعوّقة، لكنها أفسدت نظام بحريتها وكان للإنكليز السيادة في البحر.

وكانت الجيوش الجرارة في أسمالها البالية تنشد المارسييز وتقاتل من أجل فرنسا، كانت الجمهورية في باريس تقضي على نفسها فمارا الذكي أصابه الجنون بسبب داء عضال وسرعان ما قتل وداتتون غرق في سلسلة من الصواعق الوطنية، فلم يبق إلاّ روبسبيير وتعصبه الراسخ الوطيد.

لوحة تمثل سيطرة الأسطول الإنكليزي على البحر

النهضة الأوروبية

لا بد من أن نلحظ الصفة الجديدة التي ظهرت في الحرب: فالجيوش المحترفة القديمة كانت تحارب ولا غاية لها إلاّ القتال ذاته فكانت تسعى ببطء وتراخٍ كالعمّال الذين يشتغلون بالساعة. بينما كانت الجيوش الجديدة تحارب من أجل النصر رغم جوعها وظمئها. وكان أعداؤهم يسمّونهم «الفرنسيون الجدد». وأشد ما أدهش الحلفاء هو عدد هؤلاء الجمهوريين وسرعتهم. وكان يعوقهم أي عائق: فالخيام متعذر الحصول عليها بسبب انعدام المال، والعربات التي يجب أن تنقل العتاد غير متوفرة وتسبب المتاعب عند الهروب. هكذا نشأت «فكرة العيش على حساب البلاد». وشهدت سنة ١٧٩٣ ولادة طريقة الحرب العصرية القائمة على سرعة الحركة والتطور الكامل للقوة الوطنية والمبيت في العراء والاعتماد على الميرة وحشد قوات البلد المقهور وإجبار الأهالي على تقديم ما يلزم للجيش.

كما أخذت لجنة الأمن العام، تقوم بعمل إنشائي بالقدر الذي استطاع أن يستنبطه لها روبسبيير، ففرضت الضرائب على أملاك الأغنياء وصودرت لتقسيمها بين الفقراء، وحصل كل رجل على منزل وعلى مورد رزق له وزوجة وأولاد، وصدرت قوانين عنيفة ضد الاستغلال في السوق السوداء في فرنسا سنة ١٧٩٣. وفي الحقل الاجتماعي جُعل الطلاق في نفس سهولة الزواج وألغي التمييز بين الأطفال الشرعيين وغير الشرعيين. واستحدث تقويم جديد مع أسماء جديدة للشهور وأسابيع مكوّنة من عشرة أيام. كذلك استبدلت العملة والموازين والمقاييس المعقدة بالطريقة العشرية البسيطة الواضحة التي لا تزال موجودة.

بعد صيف ١٧٩٤ أصبحت الجمهورية في فرنسا تدور وسط مجموعات سياسية اتخذت لنفسها برامجاً وأهدافاً لا حصر لها: منها ما هو جمهوري راديكالي ومنها ما هو ملكي رجعي. لكن الرغبة في إقامة نظام فعّال كانت دأبها. وحدث بين اليعاقبة والملكيين سلسلة من الفتن كانت تغذيها طبقة من مشاغبي الشوارع الذين كانوا يخرجون للقتال والنهب في صف أي من الطرفين ومع ذلك نتج عن المؤتمر حكومة هي حكومة الإدارة المكوّنة من خمسة أعضاء التي جعلت فرنسا تحافظ على تماسكها مدّة خمس سنوات.

● نابوليون بونابرت:

أ ـ أسرته: ولد نابوليون بونابرت سنة ١٧٦٩ في جزيرة كورسيكا التي كانت ما تزال نصف همجية. أبوه كان محامياً عادياً ووطنياً ناضل ضد الملكية الفرنسية التي كانت تحاول أن تخضع كورسيكا. لكنه انقلب على مواطنيه وانضم إلى صفوف المهاجمين.

وكان نابوليون ماهراً ذكياً سيء الخلق متكبراً متغطرساً اكتسب من أمه وطنية رومانسية كورسيكية. وحصل بفضل رعاية محافظ كورسيكا الفرنسي على تعليم ابتداءً بمدرسة بريين Brienne العسكرية ثم بالمدرسة الحربية في باريس، ومنها انتقل إلى المدفعية سنة ١٧٨٥. كان دارساً مجتهداً للرياضيات والتاريخ وكانت ذاكرته قوية قوة بدرجة خارقة، وكان يدوّن ملحوظاته في دفاتر ما تزال موجودة.

وداع صيته بأنه ضابط نافع مقتدر، واستطاع، بواسطة شقيق روبسبيير الأصغر، أن يحصل على أول فرصة يبز بها أقرانه في طولون: وكان الملكيون قد سلّموها للبريطانيين والإسبان، واحتل أسطول متحالف ميناءها فأعطيت لبونابرت قيادة المدفعيّة واستطاع الفرنسيون بقيادته إرغام الحلفاء على مغادرة ميناء المدينة.

بعد ذلك عُيّن قائداً للمدفعية في إيطاليا. ولكن قبل تسلّمه مقاليد عمله اكفهر الجو وكاد موت روبسبيير يجر إلى مصرعه أيضاً: فاعتقل بوصفه يعقوبياً وظل خطر المقصلة محدقاً برقبته ردحاً من الزمن ثم انقشع ذلك الخطر. بعدها، ذهب إلى باريس سنة ١٧٩٥ وهو في حال رثة: وجهه هزيل، مظهره رث، شعره أشعث، يداه دون قفاز وحذاؤه غير مدهون. وكانت آخر ثورة للملكيين سنة ١٧٩٥ فكان من حسن طالع نابوليون أنه كان في باريس وأبلى في الدفاع بلاء حسناً وأنقذ الجمهورية.

وكان نجاحه في إيطالياً كاملاً

النهضة الأوروبية

نابليون ينكل بالإسبان

ذكيّان. فقد تخلص من جمهورية البندقية بأن مزّقها بين فرنسا والنمسا، محتفظاً لفرنسا بالجزر الإيونية والأسطول البندقي وأنشأ صلح كامبوفورميو الذي كان صفقة خاسرة لكل من الطرفين. بعد ذلك قرّر التوجه إلى مصر والهند والعودة منهما مظفراً، بعد أن أقنع حكومة الإدارة، التي بهرتها أعماله العظيمة في إيطاليا، فسمحت له بالذهاب وخرجت أرمادا (عمارة بحرية من سفن الحرب) من طولون في أيار سنة ١٧٩٨ واستولت على مالطة وتجنبت الأسطول البريطاني ووصلت إلى الاسكندرية ولم تلبث معركة الأهرام أن جعلته سيّداً على مصر.

وكان الأسطول البريطاني الرئيسي، في ذلك الوقت، في ظاهر المحيط الأطلسي قبالة قادس. وأفرد أمير البحر قوة من خيرة سفنه، بقيادة الأدميرال نلسون، وهو نابغة عظيم في الشؤون البحرية نبوغ نابوليون في الأمور العسكرية البريّة، ليتعقب العمارة الفرنسية وينازلها. وطفق نلسون يبحث عنها حيناً من الزمن إلى أن وجدها في مساء يوم من أوائل آب راسية على خليج «أبي قير» فأخذها على غرّة عند الأصيل وانجلى الظلام عن أنوار لهيب السفن الفرنسية المحترقة بما فيها سفينة القيادة «الأورنيت». هكذا قُضي على أسطول نابوليون وانقطع طريق العودة عليه إلى فرنسا.

وكانت هذه الحملة على مصر من أشد المحاولات تسرعاً فقد تُرك نابوليون في مصر يحاصره البريطانيون والطاعون يفتك برجاله. ومع ذلك استمر ردحاً من الزمن في خطته الشرقية، فأحرز نصراً في يافا وحاول أن يستولي على عكا فاستعملت ضده مدفعية الحصار وكان البريطانيون قد استولوا عليها من البحر قبل ذلك بزمن يسير. فعاد إلى مصر خائب المسعى محرزاً نصراً على جيش تركي عند أبي قير. ثم تخلى عن جيشه في مصر الذي بقي يقاوم حتى سنة ١٨٠١ حيث استسلم لقوة بريطانية وفر نابوليون إلى فرنسا سنة ١٧٩٩ ونجا بأعجوبة من الأسر قرب صقلية حيث كادت تأسره طرادة بريطانية.

واستطاع أن يخفي فشله في معركة أبي قير وفي حصار عكا. ولم تكن الأمور في فرنسا على ما يرام، في ذلك الوقت، فقد منيت بالهزائم العسكرية في مواقع عدة وضاع منها أكثر إيطاليا. فأدى هذا إلى اتجاه الأنظار إليه بوصفه المنقذ الطبيعي للموقف، وكانت الفضائح المالية في عز تأججها وأخبار الاختلاسات على كل شفة ولسان فنظر الفرنسيون إلى نابليون نظرة المنقذ الذي أعادته العناية الإلهية من مصر خصوصاً وأن يده لم تكن قد تلوّثت بأي اختلاس.

كان ينتخب الهيئتين مجلس شيوخ أعضاؤه يعينهم من بين أفراد طبقة خاصة هي «ذوو المكانة» في فرنسا، الذين كان ينتخبهم ذوو المكانة في المديرية أو المحافظة الذين ينتخبهم الناخبون العاديون وكان الاقتراع على انتخاب ذوي المكانة في الكومّون، حقاً مباحاً للجميع. فكان هو المظهر الوحيد للديمقراطية في هذا الهرم المذهب المحيّر.

النهضة الأوروبية

جيش نابليون

واستجاب نابوليون لمطلب زمانه. ودُبِّرت مؤامرة محكمة لاستبدال حكومة الإدارة بثلاثة «قناصل» يكون نابوليون كبيرهم.

وتصرَّف نابوليون تجاه زميليه بمنتهى الجرأة والصلف. فقد عادت إليه ثقته بنفسه كاملة وتحقق من نصرة الشعب المطلقة له. ودُبِّجَ دستوراً كان نابوليون فيه الموظف التنفيذي الأكبر ولقبه القنصل الأوَّل ومُنح بموجبه سلطات هائلة.

وحين قُدِّم هذا الدستور، الذي كان ثمرة الفيلسوف الجليل سييز Siéyès أحد القناصل الثلاثة، بالاشتراك مع نابوليون، إلى الفرنسيين أقرّوه بأغلبية ساحقة وهكذا وضعت فرنسا نفسها بين يدي بونابرت بصورة مطلقة آملة أن تعيش بسلام وسعادة ومجد.

• نابوليون قنصلاً أوَّل من ١٧٩٩ إلى ١٨٠٤

وأول عمل قام به كقنصل أوَّل أنه تسلم زمام الشؤون العسكرية التي تقوَّضت أثناء حكم الإدارة: فقام بحملة معقدة في شمال إيطاليا حقق نصراً حاسماً فيها عند مارينجو قرب اليسَّاندريا سنة ١٨٠٠. وفي كانون لأول من السنة نفسها أوقع الجنرال مورو هزيمة ساحقة منكرة بالجيش النمساوي قرب هوهيلنيدن في ظروف سيطرت عليها عوامل الثلج والوحل والجو الفظيع الرهيب. وفي ١٨٠١ تم التوقيع على الخطوة الأولى الممهدة

النهضة الأوروبية

للصلح مع انكلترا والنمسا. وانتهى الصلح مع انكلترا بمعاهدة إميان سنة ١٨٠٢.

وبمقتضى معاهدة إميان استرجعت فرنسا امبراطوريتها في المستعمرات وأصبح الباب مفتوحاً أمام نابوليون لكي ينتج ويدعم نظام الأمور ويصنع دولة عصرية تكون نبراساً ومصدراً روحياً وإلهاماً لأوروبا والعالم قاطبة. فنصَّب نابوليون نفسه لتنفيذ مشروع قديم للطرق كان لويس الخامس عشر قد أقرَّه وأنشأ الترع تقليداً منه للترع الإنكليزية وأعاد تنظيم البوليس ووطَّد شؤون الأمن في البلاد. ونشأت في تنظيم البنوك خطط جديدة تستدعي الإعجاب. كما سعى لجعل باريس تبدو بشكل روما بمالها من قناطر وعُمَد كلاسيكية.

وبهدف أضعاف الجمهوريين الذين كان يدبر الخطط للعدوان على معتقداتهم سمح بعودة المهاجرين شرط أن يقدموا تأكيدات مقنعة على احترام النظام الجديد. وتوصَّل إلى صلح عظيم أبرم به ميثاقاً «Concordat» مع روما تعهَّدت به أن تناصره وتعهَّد بأن يعيد سلطانها في الأبرشيات. وأنشأ نظام «جوقة الشرف» وهي خطة للإنعام على الفرنسيين بقطع من الشريط.

وسنة ١٨٠١ جعل أعضاء الحكومة يعيِّنونه قنصلاً أول مدى الحياة مع إعطائه حق تعيين خلف له. وحين أصبح مطلق اليد يتحكم بموارد عظيمة لبناء السفن سعى لأن يرتفع ببحريته إلى حد التفوق على البحرية البريطانية. ورغم ما لقيه في مصر من تجربة شاقة قاسية، احتل سنة ١٨٠٣ سويسرا فنشبت الحرب من جديد مع انكلترا وأخلى الوزير الضعيف مكانه في إنكلترا لوليم بت الأعظم منه مقدرة هكذا دارت بقية قصة حكمه حول تلك الحرب.

● نابوليون امبراطوراً من ١٨٠٤ إلى ١٨١٤:

لم يتم تتويج نابوليون، في روما، امبراطوراً بل في كاتدرائية نوتردام في

مراسم تتويج نابليون بونابرت امبراطوراً

النهضة الأوروبية

باريس. واستحضر البابا بيوس السابع من روما للقيام بطقوس الاحتفال. ولمّا بلغ الأمر أوجه أخذ نابوليون الأوّل التاج بيده ودفع البابا جانباً وتوّج نفسه بنفسه. وسنة ١٨٠٦ توّج نفسه بتاج لومباردي الحديدي في كاتدرائية ميلان فصار لزاماً على الجمهوريات بنات فرنسا الأربع أن يصبحن ممالك، ونصّب أخاه لويس ملكاً على هولندا وأخاه جوزيف ملكاً على نابولي. وسنة ١٨٠٧ شرع يتحدّى البابا ويضغط عليه ثم جعل منه أسيراً وضيّق عليه في فونتينبلو. هكذا نفر منه الرأي العام الكاثوليكي كما نفر منه الرأي العام المتحرّر لدى تتويجه امبراطوراً فكفّ عن كونه نصيراً وممثلاً للقديم والجديد على السواء: فالجديد قد خانه، والقديم فشل في اكتسابه ولم يعد يمثّل إلاّ نفسه.

وفي السياسة الخارجية زج أوروبا بغمرة جديدة من الحروب. فحشد جيشاً عرمرماً في بولونيه Boulogne ليغزو به انكلترا. ولصد اعتداءاته في جنوب ألمانيا اضطرت النمسا وروسيا إلى عقد تحالف وطيد مع بريطانيا ضده. وفي ١٨٠٥ أنزل به أميرا البحر البريطانيان كالدر ونلسون ضربتين قاضيتين: الأولى في خليج بسكاي والثاني في معركة الطرف الأغر. لكن نابوليون عاد وهزم النمساويين في «أولم» و«أوسترلتز» كما هزم بروسيا في معركة يينا سنة ١٨٠٦ ودحر الروس في فريدلاند سنة ١٨٠٧. لكنه تحالف

معركة واترلو

أوروبا بعـد عام ١٨٢١

مع الإسكندر الأول قيصر روسيا. وفي سنة ١٨٠٨، كانت إسبانيا حليفه الذليل تحت تصرفه المطلق فرأى من المناسب أن يخلع ملكها البوربوني لكي يرقي أخاه جوزيف بعد أن أتم فتح البرتغال بقصد توحيد المملكتين الإسبانية والبرتغالية تحت تاج أخيه. لكن الإسبان ثاروا عليه بحنق وطني متأجج وأحاطوا بجيشه في بايلن وأجبروه على التسليم. وهذا ما جعل بريطانيا وألمانيا والنمسا تستغل هذه الهزيمة لتعبئة النفوس ضد نابوليون وسرعان ما أظهر حليفه الاسكندر غطرسة كبيرة تجاهه.

أخذت أوروبا تمل نابوليون، ليس فقط ملوكها ووزراءها بل شعوبها أيضاً. وسنة ١٨١١ انسحب الاسكندر من «النظام القاري» فتحرّكت سنة ١٨١٢ جموع هائلة من الجنود نحو روسيا بقيادة نابوليون. وحلّ الشتاء وجنوده في موسكو وكان قاسياً فانحلّ الجيش وجاع وعانى من مقاومة الروس كثيراً. أخيراً تقهقر نابوليون وعاد إلى ألمانيا مع تلة من الحرس والاتباع وشراذم من الجنود الجائعين الخائرين الفاقدي المعنويات.

وبعد فترة تضعضع وثورات أوروبية ضد نابوليون اجتاح فرنسا سنة ١٨١٤ من الشرق والجنوب وعبر الراين السويديون والألمان والنمساويون والروس وجاء البريطانيون والإسبان من فوق جبال البيرينيه وقاتل نابوليون قتالاً رائعاً واستسلمت باريس في مارس. ثم تنازل في فونتينبلو عن العرش وكادت جماعة من الرعاع تقضي عليه في بروڤانس وهو في طريقه إلى الخارج.

بعد ذلك قضي نابوليون في ألبا أحد عشر شهراً. وفي ذلك الوقت ضاق الفرنسيون ذرعاً بآل بوربون. فاحتال نابوليون حتى أفلت من السفن البريطانية التي كانت تراقب جزيرته وظهر في فرنسا وسار إلى باريس في موكب نصر عظيم. وجمع جيشاً وتقدّم فضرب البريطانيين والهولنديين والروس في بلاد البلجيك. لكنه عاد وهزم عند واترلو ثم نفي إلى جزيرة سانت هيلينا وبقي فيها حتى وافته منيته بداء السرطان سنة ١٨٢١.

وسنة ١٨٢٤ مات لويس الثامن عشر وخلفه كونت أرتوا متخذاً لقب شارل العاشر منصباً نفسه لتدمير حرية الصحافة والجامعة وإعادة الحكم المطلق. لكن باريس ثارت عليه سنة ١٨٣٠ وأبدلته بلويس فيليب دوق أورليان الذي حكم عليه بالإعدام أثناء حكم الإرهاب. وقد حكم فرنسا من ١٨٣٠ حتى سنة ١٨٤٨

أوروبـــــا
بعـد عـام ١٨٢١

سنة ١٨٢١ قامت ثورة في اليونان ضد الأتراك: وظل اليونانيون يقاتلون قتال المستميت طوال ست سنوات ووقفت حكومات أوروبا تنظر إليهم متفرجة لكن الثوار المتطوعين من كل دولة أوروبية انضموا إلى الثوار وانتهى الأمر بأن قامت بريطانيا وفرنسا وروسيا بعمل مشترك فدمّر الأسطولان الإنكليزي والفرنسي الأسطول التركي في معركة نوارني سنة ١٨٢٧ وغزا القيصر تركيا وأعلنت حرية بلاد اليونان بمعاهدة أدرنة سنة ١٨٢٩. ولكن لم يسمح لها بأن تواصل تقاليدها الجمهورية القديمة واتخذت الدول لبلاد اليونان ملكاً ألمانياً هو أمير باڤاري اسمه أوتو فغلبت عليه أوهام اعترته حول حقه المقدس. فنبذ سنة ١٨٦٢ وأقيم حكام مسيحيون في الولايات الدانوبية (رومانياً حالياً) وصربيا وهي جزء من منطقة يوغوسلافيا.

وسنة ١٨٣٠ قامت بلاد البلجيك الناطقة بالفرنسية ـ وقد حفزتها الثورة في فرنسا ـ فثارت على شريكتها الهولندية في مملكة الأراضي الواطئة وسارعت الدول إلى تسكين هذا الموقف وقد أرعبها إمكان قيام جمهورية فيها أو استلحاقها بفرنسا. فمنحت البلجيكين ملكاً هو ليوبولد الأول أمير ساكس كوبرغ غوتا. وقامت في وارسو حكومة جمهورية صمدت عاماً في وجه نقولا الأول، الذي خلف الاسكندر سنة ١٨٢٥، ولكن قُضي عليها بعنف وقسوة بالغين. وصدر قرار بتحريم اللغة البولونية واستبدلت الطقوس اليونانية الأرثوذكسية

أوروبا بعـد عام ١٨٢١

مشهد من أحداث ١٨٤٨

بالطقوس الكاثوليكية.

وسنة ١٨٤٨ حدثت مجموعة ثانية من الانفجارات الخطيرة: فقد خُلع آل أورليان عن الملكية، وتأسَّست جمهورية ثانية في فرنسا. وأثيرت شمال إيطاليا والمجر ضد النمسا وأهيج البولونيون في «بوزن» على الألمان وفرَّ البابا من وجه الجمهوريين في روما. وعقد في براغ مؤتمر الكتلة السلافية الذي أسلف تقديم العديد من التسويات والتعديلات الإقليمية التي تمت سنة ١٩١٩ وانفضَّ المؤتمر بعد أن قمع الجنود النمساويون عصياناً شبَّ في براغ. وكان العصيان الهنغاري أشد قوة فواصل الكفاح سنتين وكان زعيمه الأكبر لويس كوسوث يواصل دعايته في سبيل حرية وطنه وقومه حتى بعد دحره ونفيه.

وبعد أحداث ١٨٤٨ جرت عملية إعادة تسوية للخريطة الأوروبية اتجهت نحو توحيد إيطاليا وألمانيا. وتطورَّت في الفترة الممتدة بين ١٨٤٨ و١٩١٤ فكرة الاشتراكية فقد نمت النقابات في بريطانيا وأميركا ثم انتشرت في فرنسا وإلمانيا وكل المجتمعات الغربية الصبغة وسيطرت فكرة القومية على الأمم في القرن التاسع عشر وادعت كل أمة بأن لها الحق في إدارة شؤونها الخاصة داخل حدود أراضيها الخاصة بصرف النظر عن أية أمة أخرى.

● **مؤتمر فيينا:**

بعد هزيمة نابوليون في تشرين الأول ١٨١٣ دخلت جيوش الدول المتحالفة إلى فرنسا وتنازل الامبرطور

أوروبا بعد عام ١٨٢١

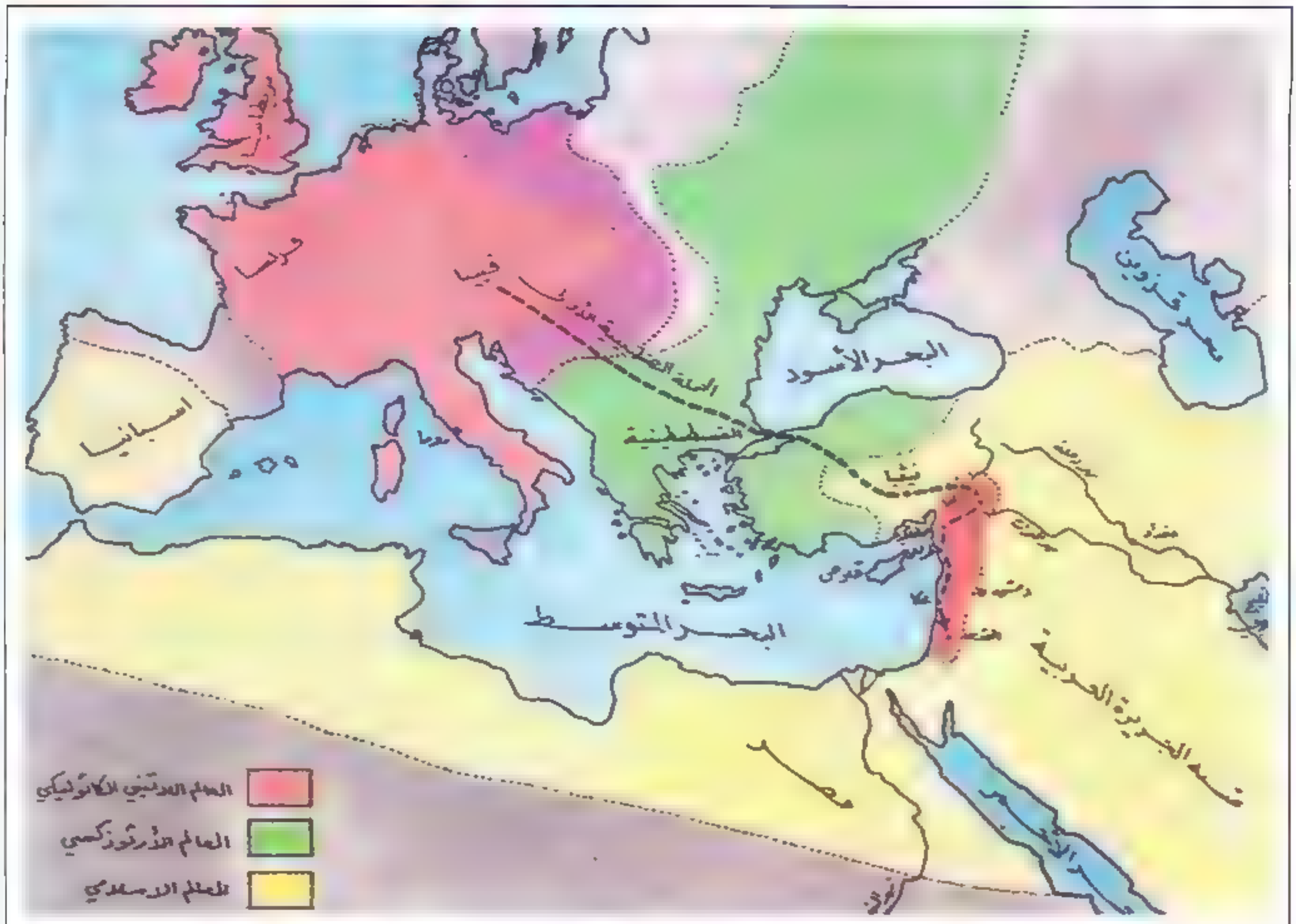

خريطة للدول التي شاركت في مؤتمر ڤيينا

عن العرش ونفي إلى جزيرة ألبا وعادت أسرة البوربون إلى الحكم في فرنسا بشخص الملك لويس الثامن عشر وعقدت دول أوروبا مؤتمر باريس الأول في ٣٠ أيار ١٨١٤ وسوّيت قضية فرنسا وأعيدت إلى حدود سنة ١٧٩٢ دون أن تدفع أي تعويضات حرب واتفق القادة الأوروبيون على عقد مؤتمر في ڤيينا بدأ أعماله في أوائل تموز ١٨١٤ لحل القضايا الأوروبية الأخرى. علماً أنه تأجّل مرّات عديدة خلال الفترة بين ١٨١٤ وحزيران ١٨١٥ بسبب عودة نابوليون إلى فرنسا وتكتل الدول الأوروبية ضده وهزيمته في معركة واترلو.

سيطرت على المؤتمر أجواء إعادة ترتيب خريطة أوروبا وجاءت مقرراته لمصلحة روسيا وبريطانيا بينما تنازلت بروسيا والنمسا عن بعض المناطق وحصلت على أخرى: فقد حصلت روسيا على ثلثي بولونيا واحتفظت بفنلندا التي سلختها عن السويد سنة ١٨٠٩ وبسارابيا التي أخذتها من العثمانيين سنة ١٨١٢. واستفادت انكلترا من مؤتمر فيينا خارج أوروبا على حساب الاستعمار الفرنسي فحصلت على جزر السيشل في المحيط الهندي وعلى جزر سانت لوسي والترينيتيه وتوباغو في بحر الآنتيل وعلى مستعمرات رأس الرجاء الصالح وسيلان وسيطرت على أسواق جديدة. وفي أوروبا حصلت على جزيرة هليغولاند في بحر الشمال وعلى جزيرة مالطا والجزر الأيونية في المتوسط الذي أصبح تحت سيطرتها التامة.

وحصلت بروسيا على قسم من بولونيا، پوزان وادتزيغ لكنها تخلّت عن فرصوفيا، وضمّت منطقة الساكس

أوروبا بعـد عام ١٨٢١

حضر مؤتمر ڤيينا ممثلون عن مئة دولة أوروبية انتظموا في ٢١٦ وفداً فاق عدد أفراد الوفود الألف شخص وتواصلت المحادثات حتى ٩ حزيران ١٨١٥. وجاءت مقرراته النهائية في ١٢٣ مادة و ١٧ ملحقاً.

وحضر المؤتمر حوالي ١٥ عاهلاً أوروبياً منهم: فرنسوا الثاني امبراطور النمسا، اسكندر الأول قيصر روسيا، وفريدريك وليم الثالث ملك بروسيا. وكان أهم المندوبين في المؤتمر: وللنغتون وكاسرليه عن انكلترا، والمستشار مترنيخ عن النمسا، الوزير نسلرود عن روسيا، الوزيران هامبولدت وهاردنبرغ عن بروسيا والوزير تاليران عن فرنسا.

وامتدت سيطرتها على بوميرانيا شمال إلمانيا وأصبحت القوة الأساسية في منطقة الراين حين ضمَّت حوض الرور ومدن دوسلدورف وكولونيا وأيكس.

أما النمسا فحصلت على البندقية ولومبارديا لكنها تخلت عن ممتلكاتها الألمانية وعن بلجيكا وترأست الاتجاد الألماني. وانتقل الحكم في توسكانا وموديا إلى أمراء نمساويين.

وحصلت السويد على النروج التي سلخت عن الدانمارك تعويضاً لها عن فنلندا التي أعطيت لروسيا. والدانمارك أخذت دوقيتي هوكشتاين ولاونبرغ عوضاً عن النروج. وألحقت بلجيكا بهولندا وألّفتا معاً مملكة الأراضي الواطئة. وأصبحت سويسرا اتحاداً كونفدرالياً حيادياً مؤلفاً من ٢٢ كانتوناً. وفي إسبانيا والبرتغال أعيدت الأسر المالكة سابقاً إلى الحكم.

أدى مؤتمر ڤيينا إلى انتصار منطق القوة وحملت مقرّراته بذور الحروب التي اندلعت في أوروبا بين ١٨٥٩ و١٨٧١ وأدت إلى تحقيق الوحدتين الإيطالية والألمانية. ولم يأخذ المؤتمرون حق الشعوب في تقرير مصيرها فقسّموا بولونيا بين بروسيا وروسيا والنمسا وأعطوا بلجيكا لهولندا...

وبرز في أوروبا على الصعيد السياسي تياران: الأول متأثر بمبادىء الثورة الفرنسية عُرف اتباعه بالمتحرِّرين وطالبوا بأنظمة دستورية وحياة برلمانية وتأمين الحريات السياسية والفردية والمساواة أمام القانون، والثاني تيار المحافظين وتزعمه المستشار النمساوي مترنيخ وقيصر روسيا اسكندر الأوّل، وتزعم القارة الأوروبية دول المؤتمر الكبرى الخمس: روسيا والنمسا وبروسيا، لم تضع دستوراً وفرنسا وانكلترا وقد وضعت كل منها دستوراً.

وحصلت أحلاف ومؤتمرات عديدة منها: الحلف المقدس ثم الحلف الرباعي والحلف الخماسي ومؤتمر أكس لاشابيل سنة ١٨١٨ ومؤتمر تروبو ١٨٢٠ ومؤتمر فيرونا في إيطاليا ١٨٢٢. لكنها جميعاً فشلت لأن خلافات كثيرة كانت قائمة بين الدول المتحالفة.

وظلّت أفكار الثورة الفرنسية تتفاعل إضافة إلى الأوضاع الاجتماعية التي أوجدتها الحركة الصناعية وهذا ما أدّى إلى سلسلة ثورات أبرزها ثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨.

فسنة ١٨٣٠ وقعت ثورة في فرنسا في تموز أجبرت الملك شارل العاشر على الاستقالة وخلفه لويس فيليب. وفي بلجيكا وقعت ثورة طالبت بالانفصال عن هولندا فانعقد مؤتمر في لندن وأقرَّ استقلال بلجيكا وحيادها. وثارت ڤرصوفيا سنة ١٨٣٠ لكن الروس أخمدوا الثورة وشددوا قبضتهم على بولونيا. ووقعت ثورات في مناطق عديدة من إيطاليا وطالب الثائرون باستقلال البلاد وتوحيدها لكن الجيش النمساوي أخمد تلك الثورات. وفي انكلترا حدثت تطورات اقتصادية واجتماعية ووصل حزب الأحرار إلى الحكم وأجرى إصلاحات اجتماعية واقتصادية واسعة أبرزها القانون الانتخابي سنة ١٨٣٢. وحدثت ثورات دامية في البلقان ضد العثمانين أبرزها ثورة اليونان.

وسنة ١٨٤٨ وقعت ثورات في معظم بلدان أوروبا وكانت لها أسباب عديدة سياسية وقومية واقتصادية واجتماعية: تمثل الوجه السياسي بأثر الثورة الفرنسية والمطالبة بتحقيق مبادىء الحرية والمساواة، والوجه القومي بنمو اليقظة القومية وبإعادة النظر في شكل الدول وكياناتها لإنشاء

أوروبا بعـد عام ١٨٢١

دول على أساس القومية كما في إيطاليا وألمانيا التي طالبت شعوبها بالوحدة. بينما طالبت شعوب بتجزئة دول قائمة كما في امبراطورية النمسا وفي البلقان. والوجه الاقتصادي الاجتماعي جاء نتيجة النمو الصناعي وتبدل بنية المجتمع وبروز جماعة من المفكرين والزعماء والنقابات يدعون إلى بناء مجتمعات على أسس جديدة.

نذكر أن الحركات القومية طالت أيضاً خارج أوروبا مثل: حركة التتريك داخل السلطنة العثمانية وبروز القضية العربية ويقظة القومية العربية وحركات الاستقلال في قارة أميركا وأبرزها مقاومة بلدان أميركا الوسطى والجنوبية للنفوذ الأوروبي والحركات الوطنية في الصين والهند.

الوحدة الإيطالية: ظلت إيطاليا بعد مؤتمر ڤيينا مجزأة إلى عدة أقسام يخضع معظمها لنفوذ اجنبي. ونمت الروح القومية ومال الإيطاليون إلى توحيد بلادهم وعملت في سبيل ذلك الحركات السرية، مثل حركة «الفحّامين» و«إيطاليا الفتاة» ووقعت ثورات في ١٨٢٠ و١٨٣١ و١٨٤٨. ورغم عدم نجاحها استمرّت الرغبة في توحيد البلاد وتعدّدت الآراء حول شكل الوحدة. لكن ملك البيمونت ـ سردينيا ڤيكتور عمبا نوئيل ووزيره الأوّل كافور لعبا دوراً بارزاً في توحيد إيطاليا وقاما بإصلاحات واسعة داخلية واتفقا مع نابوليون الثالث على توحيد البلاد.

وتمّت الوحدة الإيطالية على مرحلتين: في عهد كافور تم ضم لومبارديا والدوقيات وأملاك البابا وجنوب إيطاليا، وبعد كافور تم ضم البندقية وروما.

الوحدة الألمانية: كانت ألمانيا مجزأة، وحّدها نابوليون بونابرت جزئياً. ونمت فيها الروح القومية وتطور اقتصادها فنشطت الدعوة لتوحيد البلاد. وظهر في بروسيا قادة كبار على رأسهم الامبراطور غليوم الأول والوزير الأول بسمارك. وخاضت بروسيا ثلاثة حروب ناجحة ضد: الدانمارك سنة ١٨٦٤، النمسا سنة ١٨٦٦ وفرنسا ١٨٧٠. وتحققت وحدتها.

وبعد أن تحققت الوحدة الألمانية بالقوة أصبحت اتحاداً فدرالياً بزعامة بروسيا وعاصمتها برلين وتتألف من ٢٦ دولة لكل منها استقلال داخلي وكانت الحكومة المركزية بيد الامبراطور رمز الوحدة وقائد الجيش. وكانت السلطة التشريعية بيد مجلسين: المجلس الفدرالي ويضم مندوبين عن الحكام والملوك والمجلس الوطني ويضم ممثلي الشعب.

● الوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

منذ القرن الخامس عشر، عصر النهضة، راحت الدول الأوروبية خاصة الغربية منها تتطور بسرعة وتخلق لنفسها وللعالم مجالات جديدة في حقول الفكر والاقتصاد والاجتماع والسياسة. وإلى جانب النهضة الأدبية والفنية والتطورات السياسية إثر الثورة الفرنسية برزت ثورة علمية وصناعية كبيرة قلبت طرق الإنتاج ومفاهيم بناء المجتمع. وقد طالت الثورة الصناعية مجالات عديدة منها: المحرّك البخاري لجيمس واط الإنكليزي الذي حلّ محل القوة البشرية في تحريك مصانع الغزل والنسيج وكافة وسائل الإنتاج. والقطار الحديدي الذي حلّ تدريجياً محل عربة الخيل لجورج ستيفنس والسفينة البخارية محل الشراعية. وظهر في أواخر القرن السيارة والطائرة وباشر الناس ببناء المرافىء الكبيرة والجسور والطرق وحفروا الأنفاق.

وفي حقل الطاقة بدأ الاعتماد على الفحم الحجري الذي حلّ محل الحطب وفحم الغابة وبدأ توليد الكهرباء ونقلها واستخدامها في مجالات الصناعة وفي الخدمات المنزلية وفي أواخر القرن بدأ الاهتمام بالنفط. وفي حقل التعدين تحسّنت الأفران العالية وزادت طاقتها لتلبي مجالات الصناعة التعدينية. كما طال التطور العلوم والرياضيات والفلك والكيمياء والطب وتعاون العلم والصناعة تعاوناً وثيقاً: قدمت الصناعة المال للعلماء فزادت اكتشافاتهم وحسّنوها. وتضاعف إنتاج السلع الصناعية بالجملة.

على الصعيد الاجتماعي، قلبت

أوروبا بعـد عام ١٨٢١

مصنع الحديد والصلب الفرنسي

الصناعة الحديثة طرق الاقتصاد وبنية المجتمع وتأسَّست المصانع الكبرى فنشأت طبقة الرأسماليين والعمَّال. والرأسماليون هم الذين يديرون الآلة الاقتصادية ويملكون المصانع والمتاجر والبنوك ووسائل النقل والثروة ومصادرها. لذا كانوا الطبقة القوية التي تضغط على الدولة لتؤمن لها الحماية ولمصالحها والعمال شكلوا طبقة من الأفراد الذين يعملون في ظروف سيئة ساعات طويلة تصل إلى ١٦ ساعة في اليوم لقاء أجور متدنية وسادهم الإرهاق وفقدان الضمانات الاجتماعية والعطل الأسبوعية والسنوية وتمَّ تشغيل الأولاد والنساء. وهذا ما حرَّك الضمائر والعقول فبرز المصلحون يطالبون بتحسين وضع العمَّال وبدأ بعض رجال الدين والمصلحين يطالبون بتطبيق مبدأ العدالة واحترام حقوق الإنسان.

وظهرت جماعة تطالب بإصلاح المجتمع بروح علمية الذين عُرفوا بالاشتراكيين فيما بعد.

انتشر المنظرون الاشتراكيون في فرنسا وانكلترا وألمانيا وبات العمال قوة فعالة ضاغطة على الحكومات حتى بدَّلت قوانين الانتخاب. لكن العمَّال والاشتراكيين لم يستلموا الحكم منفردين في أي دولة أوروبية، رغم نفوذهم، حتى نجحوا في روسيا سنة ١٩١٧.

وتأسَّست النقابات للدفاع عن حقوق العمَّال وأصبح لكل قطاع نقابة ثم اتحدت النقابات. فتشكل في فرنسا مثلاً الاتحاد العام للعمَّال سنة ١٨٩٥ واعترفت الدول تدريجياً بالنقابات وبشرعة الإضراب.

وأعطى التفوق الأوروبي في العلم

أوروبا بعد عام ١٨٢١

والصناعة دول القارة تفوقاً اقتصادياً ومالياً وعسكرياً واضحاً. واحتاجت الصناعة الأوروبية إلى الأسواق لشراء المواد الأولية وبيع السلع الإنتاجية. فانفتح مجال جديد للعلاقات الدولية عُرف بالاستعمار. ومن خلاله سيطرت دول أوروبا على بلاد أخرى ضعيفة وبنيت الامبراطوريات الاستعمارية كما فعلت انكلترا وفرنسا وإسبانيا وروسيا والبرتغال وهولندا وألمانيا وبلجيكا وإيطاليا وغيرها. وقد استمر الاستعمار حتى القرن العشرين حيث انهار إثر الحرب العالمية الثانية.

● علاقات دول أوروبا بالشرق

ـ المصالح الأوروبية في الدول العثمانية:

يعود تاريخ هذه العلاقات إلى الاتفاق غير المعلن بين الدول الأوروبية للحفاظ على الدولة العثمانية عندما بدأت هذه الأخيرة بالانهيار في القرن الثامن عشر لأن انهيارها يؤدي إلى مجابهات بين هذه الدول للحصول على أكبر حصة من أراضيها. هكذا سعت دول أوروبا للمحافظة على الدولة العثمانية وسعت إلى تقوية نفوذها داخل أراضيها لما لها من مصالح في الشرق.

ويعود تاريخ تدخل دول أوروبا في شؤون الدولة العثمانية إلى القرن السادس عشر حين وقّع فرنسوا الأول ملك فرنسا والسلطان العثماني سليمان القانوني معاهدة سنة ١٥٣٥ تعطي فرنسا امتيازات تجارية في الدولة العثمانية دامت حتى بداية القرن العشرين. وسنة ١٥٦٩ وافق ملك فرنسا شارل التاسع والسلطان العثماني سليم الثاني على تجديد المعاهدة وأعطيت فرنسا بموجبها امتيازاً جديداً أجبر جميع السفن التجارية على رفع العلم الفرنسي لدى مُرورها في مناطق السيطرة العثمانية. هذا التدبير أثار غيرة الدول الأوروبية الأخرى فسعت إلى امتيازات مماثلة بقيت تتجدَّد حتى القرن التاسع عشر حين أصبح السلطان العثماني غير قادر على التخلص منها نظراً للضعف الذي أصاب السلطنة العثمانية.

وتطوَّرت هذه الامتيازات مع الزمن فشملت حماية الأوروبيين القاطنين داخل حدود السلطنة العثمانية.

وظلت الدول الأوروبية تتدخل بشؤون السلطنة العثمانية فاحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت بريطانيا وأصبحت هذه الامتيازات حقوقاً أوروبية في الدولة العثمانية وأعطت الأوروبيين ذريعة للتدخل في الشؤون العثمانية.

وفي ٢٧ آذار ١٨٤٥ أعلنت فرنسا وبريطانيا بالاتفاق مع الحكومة العثمانية الحرب على روسيا فبدأت بذلك حرب القرم التي انتهت في أوائل سنة ١٨٥٥ وبدأت المفاوضات في ڤيينا بين الفرنسيين والروس فأدت إلى اتفاقية باريس في آذار ١٨٥٦ وتم الاتفاق بين الجانبين حول إصلاحات في الدولة العثمانية وعلى حرية الملاحة في مضيقي البوسفور والدردنيل وفي البحر الأسود.

جنود السلطان سليم

الحرب العالمية الأولى

- فرنسا كانت على علاقة صداقة مع العثمانين منذ القرن السادس عشر وأصبحت حامية الأماكن المقدسة في القدس وحامية للموارنة في جبل لبنان وكانت مفضلة في التجارة والسياسة لدى شعوب المنطقة واصطدمت بالإنكليز لكنها حافظت على علاقاتها جيدة بواسطة قناصلها وموفديها.
- روسيا حصلت منذ ١٧٩٢ على حق الملاحة في البحر الأسود وهذا ما سمح لها بالتدخل في شؤون منطقة البلقان. كما حصلت على حق حماية الروم الأرثوذكس من رعايا السلطنة العثمانية وسعت للوصول إلى المياه الدافئة عبر السيطرة على مضيقي البوسفور والدردنيل وحصلت على حرية الملاحة عبرهما سنة ١٨٤٠.
- انكلترا اهتمت بالمنطقة، منذ حملة نابوليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٨ وسعت إلى الحد من الهيمنة الفرنسية عن طريق تدخلها في لبنان وسوريا بعد انسحاب المصريين بقيادة إبراهيم باشا سنة ١٨٤٠ وأصبح أسطولها البحري من أهم الأساطيل في المتوسط لكنها لم تجد موطىء قدم ثابت لها في المنطقة إلاّ بعد احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢.
- بروسيا لم تعلب دوراً مهماً في شؤون الشرق ولكنها تقرّبت من الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر حين بدأت مشروع مد خط حديدي يربط بغداد ببرلين.

مصر سنة ١٨٨٢ وأبرز القضايا التي واجهها العثمانيون في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت قضية البلقان: فقد ثار أهالي ولايتي البوسنة والهرسك بوجه استبداد الولاة الأتراك وانضم إليهم سكان الصرب والجبل الأسود والبلغار وأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٨٧٧ وفرضت عليها معاهدة سان ستيفانو التي أعطت الاستقلال لبلغاريا والجبل الأسود احتجت بريطانيا والنمسا على التفرد الروسي فدعا بسمارك مستشار ألمانيا إلى مؤتمر عقد في برلين سنة ١٨٧٨ حضرته الدول الكبرى وتم الاتفاق فيه على تقسيم بلغاريا واستقلال الجبل الأسود والصرب ورومانيا وإعطاء البوسنة والهرسك للنمسا.

لم تنته الأمور في البلقان عند هذا الحد. فقد اتفقت بلغاريا والصرب واليونان والجبل الأسود وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية سنة ١٩١٢ وانعقد مؤتمر في لندن سنة ١٩١٣ أدى إلى توقيع معاهدة بوخارست التي لم يبق بموجبها للسلطنة العثمانية في أوروبا سوى منطقة تراقيا.

الحرب العالمية الأولى

أسبابها: شهدت أوروبا والعالم في السنوات الممتدة بين ١٨٧٠ تاريخ الوحدة الألمانية ومقتل ولي عهد النمسا في سيزاجيفو في ٢٨ حزيران ١٩١٤ مجموعة أحداث وأزمات وترت الأجواء الدولية ومنها: بروز فلسفة القوة والنزعة إلى الحرب في ألمانيا، والسعي إلى تأمين المستعمرات خاصة بعد التطور الصناعي الكبير اللاحق لمرحلة الوحدة وحاجة ألمانيا إلى المواد الأولية والأسواق.

من ناحية ثانية وجد بسمارك أن فرنسا القوية والمدعومة تشكل خطراً على مستقبل بلاده فسعى إلى عزلها دولياً وسعى بالمقابل إلى تقوية نفسه بأحلاف دفاعية مع الدول التي تشاطره نظرته، فنشأ التحالف الثلاثي سنة ١٨٨٢ وضم إلمانيا والنمسا وإيطاليا. كما عقد الامبراطور غليوم الثاني الألماني سنة ١٩٠٥ معاهدة سرية مع القيصر نقولا الثاني ضد بريطانيا. وردّت فرنسا على التحالف الثلاثي باتفاق مع روسيا سنة ١٨٩١ وبتقربها مع إيطاليا سنة ١٩٠٢ وبتحالف آخر مع بريطانيا سنة ١٩٠٤، ثم عملت على حل الخلاف الروسي ـ الإنكليزي فتحوّل الاتفاق بين فرنسا وكل من الدولتين إلى تفاهم ودّي ثلاثي سنة ١٩٠٧. هكذا انقسمت أوروبا إلى معسكرين كبيرين. وسعت دولها إلى زيادة جيوشها وبدأ سباق محموم على التسلح وظهرت أسلحة حديثة فتاكة خاصة الطائرات والغواصات، وتعزز أسطولها البحري لأن مستقبلنا على

الحرب العالمية الأولى

البحر، حسب ما قال القيصر الألماني. وفشلت محاولات التهدئة والحد من التسلّح التي قام بها القيصر الروسي سنة ١٨٩٨ حين دعا إلى مؤتمر في لاهاي. وأرسل الملك الإنكليزي أدوار السابع اللورد هالدين إلى برلين سنة ١٩٠٦ للتفاوض بشأن تحديد الأسلحة ففشل وحاول السير إدوار غراي وزير خارجية بريطانيا أن يقرّب بين وجهات نظر المتحالفين الأوروبيين ففشل بسبب تعنت الألمان.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ظهرت قضايا القوميات في أوروبا والشرق بشكل علني ومقلق وراحت الشعوب القومية المحكومة من دولة أو أكثر تسعى إلى الاستقلال والوحدة ملتمسة العون والمساعدة من الدول المعارضة للدول المهيمنة عليها. وأبرز هذه القوميات: الشعوب السلافية الخاضعة للنمسا والطامحة للتوحد مع دولة صربيا وخاصة في ولايتي البوسنة والهرسك التي ضمتها إليها النمسا سنة ١٩٠٨ وطلب السلافيون حماية روسيا ضد النمسا.

العرب الذين ضاقوا ذرعاً بسياسة التتريك وسعوا إلى تكوين كيانات مستقلة بمساعدة الإنكليز بعد انحياز تركيا إلى الألمان. وسكان الألزاس واللورين الذين رفضوا الذوبان في الوحدة الألمانية وظلوا تواقين للعودة إلى السيادة الفرنسية.

وأدى مقتل ولي عهد النمسا الأرشيدوق فرنسوا فرديناند في سيراجيفو على يد طالب صربي متعصب يوم الأحد في ٢٨ حزيران ١٩١٤ إلى إطلاق شرارة الحرب التي تريدها ألمانيا ضد أعدائها. هكذا بدأت الحرب العالمية الأولى فعلياً بفريقين متقابلين: ألمانيا والنمسا من جهة وروسيا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وصربيا والجبل الأسود، ثم اليابان في ١٥ آب من جهة ثانية. وانضمّت فيما بعد دول جديدة إلى الفريقين ومراحل الحرب كانت على الشكل التالي: احتلال اللكسمبورغ وبلجيكا في ١٢ آب ١٩١٤. واختراق الألمان للدفاعات الفرنسية، بعد اجتياح بلجيكا وتقدّمهم حتى وصلوا إلى بُعد ٢٥ كلم عن العاصمة باريس ولجوء الحكومة الفرنسية إلى بوردو. ومعركة المارن الأولى بين ٦ و١٢ أيلول ١٩١٤ التي أوقف الفرنسيون فيها زحف الألمان عند نهر المارن. ومعركة ڤردان في شباط ١٩١٦ وهجوم نهر السوم في تموز ١٩١٦ وفيه استُعملت الدبابات للمَرة الأولى. تلك أبرز المعارك على الجبهة الغربية.

أما في الجبهة الشرقية. فقد قامت علنا الحرب ضد روسيًا حيث هاجم الروس ألمانيا من الشرق، من بروسيا الشرقية، في محاولة لتخفيف الهجوم الألماني على فرنسا وهذا ما حصل بالفعل في معركة المارن كما هاجم الروس القوات النمساوية وانتصروا عليها عند أبواب غاليسيا في ١٢ أيلول ١٩١٤. وفي ٢٩ أيلول دخلت القوات الروسية إلى المجر وتراجعت القوات النمساوية نحو كراكوڤيا. وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩١٤ سقطت. وفي بداية سنة ١٩١٥ عين الألمان فالكنهاني رئيساً للأركان وانضمّت بلغاريا إلى جانب ألمانيا في حربها. فاجتاحت قواته بولونيا وقضت على المقاومة الروسيّة. واضطر القيصر الروسي نيقولا إلى التراجع عن غاليسيا بكاملها ثم عن بولونيا باتجاه السهل الروسي ثم من جبال الكاربات وليتوانيا. وفي آذار ١٩١٧ اهتزت روسيا نتيجة الخسائر الكبرى في المعارك وسوء الحالة الاقتصادية وخيانة العديد من كبار الضباط ودسائس البلاط الملكي حيث ساد نفوذ زوجة القيصر الألمانية الأصل وفضائح الراهب راسبوتين وفي ٧ آذار بدأت الاضرابات لنقص القمح والفحم.

وسعى الجنرال جوفر خلال سنة ١٩١٥ إلى خرق الجبهة الألمانية خلال ثلاث حملات قام بها الفرنسيون في منطقة شمبانيا في شباط وفي منطقة أرتوا في أيار ومجدّداً في شمبانيا في أيلول دون جدوى وبلغت خسائرهم ٣٤٨٠٠٠ قتيل مقابل ثلاثة أضعاف هذا الرقم عند الألمان. وبين ٢١ شباط و٢٤ حزيران ١٩١٦ سعى الألمان إلى احتلال منطقة ڤردان لاستنزاف القوات الفرنسية فكانت النتيجة مقتل ٦٠٠٠٠٠ ألف جندي من الجانبين دون أن يصل الألمان إلى هدفهم. وشن البريطانيون هجوماً ضد الألمان في منطقة السوم في حزيران ١٩١٦ دون جدوى. وفي ٢٤ أيار ١٩١٥ دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب

الحرب العالمية الأولى

الجيش الفرنسي

الحلفاء ودخلت بلغاريا إلى جانب دول الوسط في تشرين الأول ١٩١٥ وهذا ما سمح للنمسا أن تسحق القوات الصربية. وفي شباط ١٩١٥، انزل الحلفاء قوات في مضيق الدردنيل لكن الحملة فشلت فسعت بريطانيا إلى استمالة العرب وحثهم على الثورة ضد العثمانيين مقابل تأسيس مملكة عربية. لكن اتفاقية سايكس- بيكو التي وقعت سنة ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا لتقسيم الدولة العثمانية فيما بينهما أجبرت العرب على إعادة النظر في مواقفهم.

ورغم سعي ألمانيا إلى عرقلة المواصلات البحرية، واستعمالها للغواصات لضرب القوافل المتجهة نحو أوروبا عبر المحيط الأطلسي، ظلت بريطانيا مسيطرة على البحار خاصة بعد معركة جوتلاند التي خاضتها ضد ألمانيا في بحر الشمال في ٣١ آيار ١٩١٦.

وفي ٣١ كانون الثاني ١٩١٧ أعلن الألمان الحرب البحرية الشاملة واعتقدوا أنه بإمكانهم تركيع بريطانيا خلال ستة أشهر لكنهم تراجعوا في أيلول بعد أن تمكنت بريطانيا من حماية القوافل المتجهة إلى أوروبا بمساعدة الأميركيين الذين أعلنوا الحرب على ألمانيا في ٤ نيسان ١٩١٧ كردٍّ على الحرب البحرية وبدأوا بالوصول إلى أوروبا في ٢٦ حزيران ١٩١٧.

وأدت ثورة البلاشفة في روسيا إلى توقيع هدنة بريست ليتوفسك مع الألمان في ١٥ كانون الأول ١٩١٧ وإلى خروج روسيا من الحرب ممّا سمح للألمان بتوجيه فرقهم التي كانت على الجبهة الشرقية إلى الجبهة الغربية والاستفادة من تفوقهم العددي لمحاولة إحراز نصر على الحلفاء قبل وصول الأميركيين. وسعى الألمان في ربيع وصيف ١٩١٨ إلى خرق الجبهة الغربية بشنهم أربع هجمات، في ٢١ آذار و٨ نيسان و٢٧ أيار و١٥ تموز.

الاستقلال الأميركي

قتلى الحروب

لكن الحلفاء تمكنوا من التصدي لها وشنوا هجوماً معاكساً في ١٨ تموز اتبعوه بهجوم آخر في ٨ آب أدّى إلى بدء التراجع الألماني وفي خريف سنة ١٩١٨ طلب حلفاء ألمانيا توقيع الهدنة بعد هزيمة بلغاريا في أيلول وتركيا والنمسا في تشرين الأول. وفي ٩ تشرين الثاني، تنازل وليم الثاني عن العرش وفي ١١ منة وقّعت ألمانيا على هدنة روتوند مع الحلفاء دون قيد أو شرط. فانتهت بذلك «الحرب الكبرى» التي كانت الأولى من نوعها في تاريخ البشرية.

ـ أميركا ـ
الاستقلال الأميركي

● **لمحة تاريخية عن أميركا:**

اصطدم الملاحون الذين اقتحموا القارة الأميركية بصعوبة اجتياز الممرات الكندية في الشمال الشرقي للقارة باتجاه الباسيفيكي. فيما كانت الأراضي أو الممتلكات الإسبانية في التكساس محاطة بصحاري يستحيل اجتيازها من جهتي الغرب والجنوب. وهذا ما جعل المستعمرين الإنكليز الذين أقاموا في السهول الساحلية في الشرق يصطدمون بالحاجز الأپالاشي حين سعوا للاتجاه غرباً، فتحاشوا هذا الحاجز وحاولوا سلوك شاطىء نهر الهدسن والبحيرات الكبرى، بينما عثر الفرنسيون الذين احتلوا وادي السان لوران ووادي المسيسيبي على أفضل الممرات نحو الأراضي الخصبة في السهول الكبرى وفي الغرب الذي سبقوا الإنكليز إليه. ونشبت من جراء ذلك الحروب الإنكليزية ـ الفرنسية.

ورغم الصعوبات المناخية، أصبحت أميركا الشمالية التي كانت شبه خالية، في خلال ٤٠٠ سنة أكثر قارات العالم قوة بسبب توافد الناس عليها على موجات متعاقبة. مع أن الهنود الحمر والأسكيمو، وهم الأميركيون الأصليون قدموا إلى أميركا من آسيا منذ ٤٠٠٠ عام، لكنهم حصروا اهتمامهم، في تلك المساحات الشاسعة بالقنص وصيد السمك. لكن ضآلة عددهم ووفرة عدد الوافدين إلى القارة الجديدة، بعد جولة كريستوف كولومبس البحرية واكتشافه لأميركا، جعلت هنود أميركا الحمر يتلاشون ويعيشون محصورين ضمن حاميات

لم يكن كريستوف كولومبس يهدف في إبحاره إلى اكتشاف قارة جديدة بل إثبات نظريته المؤمنة بأن الأرض دائرية الشكل. وبأنه، انطلاقاً من ذلك، يمكن الوصول إلى الهند بطريق معاكس بطريق الرجاء الصالح. هكذا أبحر في ١١ أكتوبر سنة ١٤٩٢، بدعم من ملك إسبانيا، من الشواطىء الإسبانية واتجه غرباً عبر المحيط الأطلسي في محاولة للدوران حول الأرض والوصول إلى آسيا وتحديداً إلى الهند ليجلب الطيب والتوابل إلى إسبانيا، فرست سفنه، بعد صراع مرير مع أمواج المحيط على شواطىء جزر الباهاماس. وقد اعتقد كولومبس يومها أن سفنه رست في الصين وأنه وجد طريقاً أقرب لاستيراد التوابل لكنه لم يدر أنه قد فتح، في الواقع، الطريق إلى مناجم الذهب.

الاستقلال الأميركي

خاصة وضيّقة.

لم يجد كريستوف كولومبس في القارة سوى أشجاراً ونباتات وحيوانات غريبة لم يألفها من قبل. كما وجد أناساً غريبي الزي والعادات واللهجة. فاعتقد، ببساطة، أنهم أهل الهند. لكنه سرعان ما عاد وتأكد، بمعونة العديد من الباحثين في القرن السادس عشر بأنه اكتشف قارة جديدة غير الهند.

لكن العالم لم يتوسع في معرفة القارة الأميركية إلاّ بعد اكتشاف كولومبس وغيره من البحارة، بعد رحلات متلاحقة تمكنوا من خلالها من استكشاف كافة أقسامها ومعالمها وخيراتها الوفيرة والعديدة.

والقارة الأميركية كبيرة جداً: يحدُّها المحيط الأطلسي شرقاً والمحيط الباسيفيكي غرباً وتمتد شمالاً حتى حدود القطب المتجمّد الشمالي وجنوباً حتى المحيط المتجمّد الجنوبي. تبلغ مساحتها ٤١٩٠٠٠٠٠٠كلم٢ أن نسبة ٢٨,٢٪ من مساحة اليابسة. أما إذا قارنّاها بالقارات الأخرى فهي تعادل بمساحتها آسيا وتبدو أكبر من أوروبا بأربع مرّات، بينما لا تشكل قارة أفريقيا سوى ثلاثة أرباع القارة الأميركية، رغم مساحتها الشاسعة.

ويسمح شكل القارة الأميركية بتقسيمها إلى مثلثين كبيرين: يعرف الأول باسم أميركا الشمالية ويشكل ١٤,٢٪ من مساحة القارة. ويعرف المثلث الثاني باسم أميركا الجنوبية ويشكل ١٢٪ من مساحة القارة. ويضم مجموعة كبيرة من الدول من بينها: الأرجنتين، البرازيل، التشيلي، فنزويلا، والباراغواي. ويجمع بين هذين المثلثين أرخبيل من الجزر هو بمثابة جسر يربط الشمال بالجنوب عبر خليج المكسيك والبحر الكاريبي، وتشغل هذه المنطقة ٢٪ فقط من مساحة القارة الأميركية وتُعرف بأميركا الوسطى وتضم دول صغيرة عدّة من بينها السلفادور ونكاراغوا وكوستاريكا.

وبالعودة إلى أوائل القرن السادس عشر نجد أن طلائع الأوروبيين بدأت تفد إلى القارة الأميركية: فقد حلَّ الفرنسيون في لويزيانا وعلى ضفاف نهر السان لوران، والإسبان في فلوريدا والجنوب، والهولنديون والإنكليز في الساحل الشرقي. وسرعان ما تمكن هؤلاء من التخلص من منافسيهم بمساندة من حكوماتهم. بينما تخلّت الحكومة الفرنسية عن مواطنيها، خاصة فرنسيي كندا سنة ١٧١٣.

وقد دخل الولايات المتحدة، منذ سنة ١٨٢٠ أكثر من ٤٥ مليون نسمة منهم: ٥ ملايين قدموا من كندا. وقد قذفت أوروبا العاجزة عن توفير فرص العمل والغذاء والعيش الكريم هؤلاء المهاجرين، فسعوا وراء لقمة عيشهم. وكان معظم هؤلاء من اللاجئين السياسيين أو الفلاحين الذين فقدوا أراضيهم أو الحرفيين الذين قضت الآلة على مصادر رزقهم. فاندفعوا نحو «الأرض الجديدة» وهو اللقب الذي أطلقه الأوروبيون على القارة الأميركية دون أمل بالعودة ثانية إلى وطنهم الأم.

وقد هاجر الأوروبيون نحو القارة الأميركية على دفعات متعاقبة نجملها بثلاث موجات من المهاجرين هي على التوالي:

- قدوم الإيرلنديين سنة ١٨٥٠ بعد أن اجتاحتهم مجاعة نجمت عن أزمة البطاطا والسكوتلانديين وسكان بلاد الغال في جنوب غرب بريطانيا.
- قدوم الإنكليز والإلمان، والإسكندنافيين إلى القارة الجديدة بين ١٨٦٥ و١٨٩٠.
- قدوم دفعات من أوروبا الجنوبية كالإيطاليين ومن أوروبا الشرقية كالروس والبولونيين والمجريين بين ١٩٠٠ و١٩١٠ وكان بين هؤلاء حوالي مليوني يهودي من الذين هربوا من المذابح في روسيا.

• الولايات المتحدة:

يتكون إقليم الولايات المتحدة من الجزء الأساسي من أميركا الشمالية وتقع فيه ٥٠ ولاية وولايتي ألاسكاوها واي الواقعتين بعيداً عنه ويبدو من وضع الولايات المتحدة الاقتصادي - الجغرافي أنها تستحم شرقا بمياه المحيط الأطلسي وغرباً بمياه المحيط الهادي وهذا ما سَّهل علاقاتها التجارية قديماً مع بلدان ما وراء المحيطات.

وما ازدهار الولايات المتحدة وقوتها إلاّ نتيجة اتساع أراضيها ووفرة وتنوع مواردها وديناميّة شعبها المتكوّن

الاستقلال الأميركي

اشترت الولايات المتحدة آلاسكا من روسيا سنة ١٨٦٧. وهي تتميز بتضاريس جبلية وتقع في أقصى الشمال وهذا ما جعل مجال استغلالها محدوداً يقتصر على صيد أسماك السومون واستثمار بعض مناجم الذهب والنحاس وآبار النفط والغاز. وقد بدأت ألاسكا تؤدي دوراً في المبادلات الاقتصادية والعسكرية والسياسية، بعد الحرب العالمية الثانية، بفضل ساحلها الجنوبي وجزر الوشيان. فأنشيء فوقها طريق جوي يتجه نحو الشرق الأقصى باعتباره أقل طولاً وأكثر ضماناً بسبب صفاء السماء هناك وانعدام الضباب.

ولأن الولايات المتحدة ترغب في الإشراف على طرق التجارة العالمية فقد وضعت يدها على ممتلكات أخرى لتجعل منها نقاط تمركز رئيسية تخدم خططها التوسعية الاقتصادية والسياسية. هكذا أشرفت على قناة پناما، الطريق الحيوية بالنسبة للمواصلات بين الساحل الباسيفيكي والساحل الأطلسي. وقد تنازلت دولة پناما سنة ١٩٠٠ عن منطقة عرضها عشرة أميال على جانبي القنال.

كما تمكنت من احتلال جزيرة بورتوريكو عام ١٨٩٨، بعد حرب قصيرة مع إسبانيا. وعام ١٩١٧ اشترت من الدانمارك الجزر العذراء المجاورة لها فأصبحت، بفضل امتلاكها لهذه الجزر الرائعة القائمة وسط القوس المؤلف من جزء الأنتيل أن تراقب مداخل بحر الانتيل وقناة پناما.

واستحوذت كذلك على قواعد ضرورية على طريق الشرق الأقصى فاحتلت جزر هاواي عام عام ١٨٩٨. واحتلت عام ١٩١٨ جزر وايك وغوام وهي مفتاح الشرق الأقصى، وجزر ساموا التي تشكل بدورها مفتاح القارة الأسترالية وانتزعت إثر الحرب العالمية الثانية، من اليابان جزر ماريان، بالو، كارولين ومارشال وضمّتها إلى ممتلكاتها.

وتجدر الملاحظة إلى أن مجموع مساحة الأراضي الواقعة خارج الولايات المتحدة والتابعة لها يبلغ ١,٥ مليون كلم. ٢

من مزيج من الشعوب الأوروبية التي سبق وفتحت واستعمرت مناطق واسعة فيها. وكانت تضم ١٣ ولاية بريطانية أعلنت استقلالها سنة ١٧٧٦ ثم ضمّت إليها تدريجياً مناطق واسعة هي:

- المنطقة الواقعة بين جبال الأبالاش والبحيرات الكبرى والمسيسبي بعد أن تخلت عنها بريطانيا سنة ١٧٨٣.
- منطقة لويزيانا التي باعتها فرنسا سنة ١٨٠٣ إضافة إلى كل المناطق الواقعة بين المسيسبي والروكيز.
- منطقة فلوريدا التي تخلت عنها إسبانيا سنة ١٨١٩.
- المناطق الواقعة شمالي غربي الباسيفيك وقد حصلت عليها الولايات المتحدة عندما اعتبرت بريطانيا خط العرض ٤٩ حداً جنوبياً لكندا.
- المناطق الممتدة من المكسيك حتى المحيط الباسيفيكي أي تكساس الجديدة وكاليفورنيا وقد انتزعتها من المكسيك بعد حرب ١٨٤٦ ـ ١٨٤٨ ممَّا اضطر المكسيك إلى تقليص حدودها حتى نهر ريوغراندي.
- منطقة الألاسكا وقد اشترتها من روسيا عام ١٨٦٧.

• لمحة تاريخية عن تطور نظام الولايات المتحدة السياسي

يقول جون سميت، مؤسّس مستعمرة فرجينيا: «لم تتفق السماء والأرض على إعداد بقعة يسكنها الإنسان أفضل من هذا المكان». ففي غضون القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر أي في خلال مائة سنة إنساب تيار الهجرة إلى أميركا، وكانت تلك الحركة من أعظم حركات الهجرة التي عرفها التاريخ. وقد جاءت نتيجة عوامل قوية مختلفة وزخرت بأراء وعادات وخصائص قومية متعددة: إذا نقل كل شعب من الشعوب المهاجرة إلى الأرض الجديدة عاداته وتقاليده. لكن خصائص البيئة الطبيعية الأميركية واختلاف عناصر المهاجرين وتأثير بعضهم في البعض الآخر وصعوبة المحافظة على الدنيا القديمة وعاداتها في قارة بكر وجديدة أحدثت جميعها تغييرات جوهرية أخذت تتبلور وتتضح معالمها شيئاً فشيئاً.

وكان الإنكليز يشكلون الأغلبية الساحقة ممن استوطنوا أميركا حتى أواخر القرن السابع عشر. مع أن جماعات قليلة من الهولنديين والسويديين والألمان استوطنت في المنطقة الوسطى. واستوطن في

الاستقلال الأميركي

كان أكثر المستعمرين والمهاجرين عاجزين عن تأمين نفقات السفر لهم ولعائلاتهم وعن البدء بحياة جديدة في تلك الأرض الجديدة. فقامت شركات الاستعمار: كشركة ڤيرجينيا وشركة خليج ماساشوستس بدفع تكاليف نقلهم على أن يعملوا لحساب هذه الشركات كأنهم متعاقدون معها. ولكن سرعان ما تبين لهؤلاء المهاجرين أنه كان من الأفضل لهم لو بقوا في بلدانهم الأم ما داموا سيبقون خداماً أجراء لدى هذه الشركات.

لكن هذه الشركات، سرعان ما اكتشفت عثرات هذا النظام، فاستخدمت وسيلة جديدة لتشجيع المستوطنين على الرحيل إلى أميركا: فقد تعاقدوا مع المهاجرين على أن يعملوا لحساب الشركة مدة من الزمن تتراوح بين أربع سنوات وسبع سنوات حتى تسدّد نفقات السفر التي سددتها الشركة عنهم، حتى إذا أصبح المهاجر حراً، حصل على ما كان يستحقه من حقوق: قطعة أرض صغيرة، تبلغ مساحتها عادة خمسين فداناً.

كارولينا الجنوبية وغيرها عدد قليل من الهوجونت الفرنسيين وجماعات أخرى من الإسبان والطليان والبرتغاليين. على أن هذه الجماعات لم تتجاوز نسبة ١٠٪ من مجموع عدد السكان حتى ذلك التاريخ.

وبعد سنة ١٦٨٠ لم تعد انكلترا مصدر المهاجرين الرئيسي: فقد وفدت جماعات غفيرة من إلمانيا وإيرلندا واسكتلندا وسويسرا وفرنسا إلى أميركا لأسباب مختلفة: الألمان هربوا من الحرب، الإسكتلنديون والإيرلنديون هربوا من الفقر وتعسف كبار ملاكبي الأرض. وبلغ عدد السكان سنة ١٦٩٠ نحو ربع مليون نسمة ثم أخذ يتضاعف مرّة كل خمس وعشرين سنة. حتى زاد عددهم إلى مليونين ونصف نسمة سنة ١٧٧٥ وكان المهاجرون من غير الإنكليز يكيفون أنفسهم وفق ثقافة الإنكليز الأصليين ولكنهم كيفوا عاداتهم وتقاليدهم وفق الأحوال في أميركا فإذا بالثقافة فريدة من نوعها إذ كانت مزيجاً من الصفات

لوحة تمثل المستوطنين البريطانيين

الاستقلال الأميركي

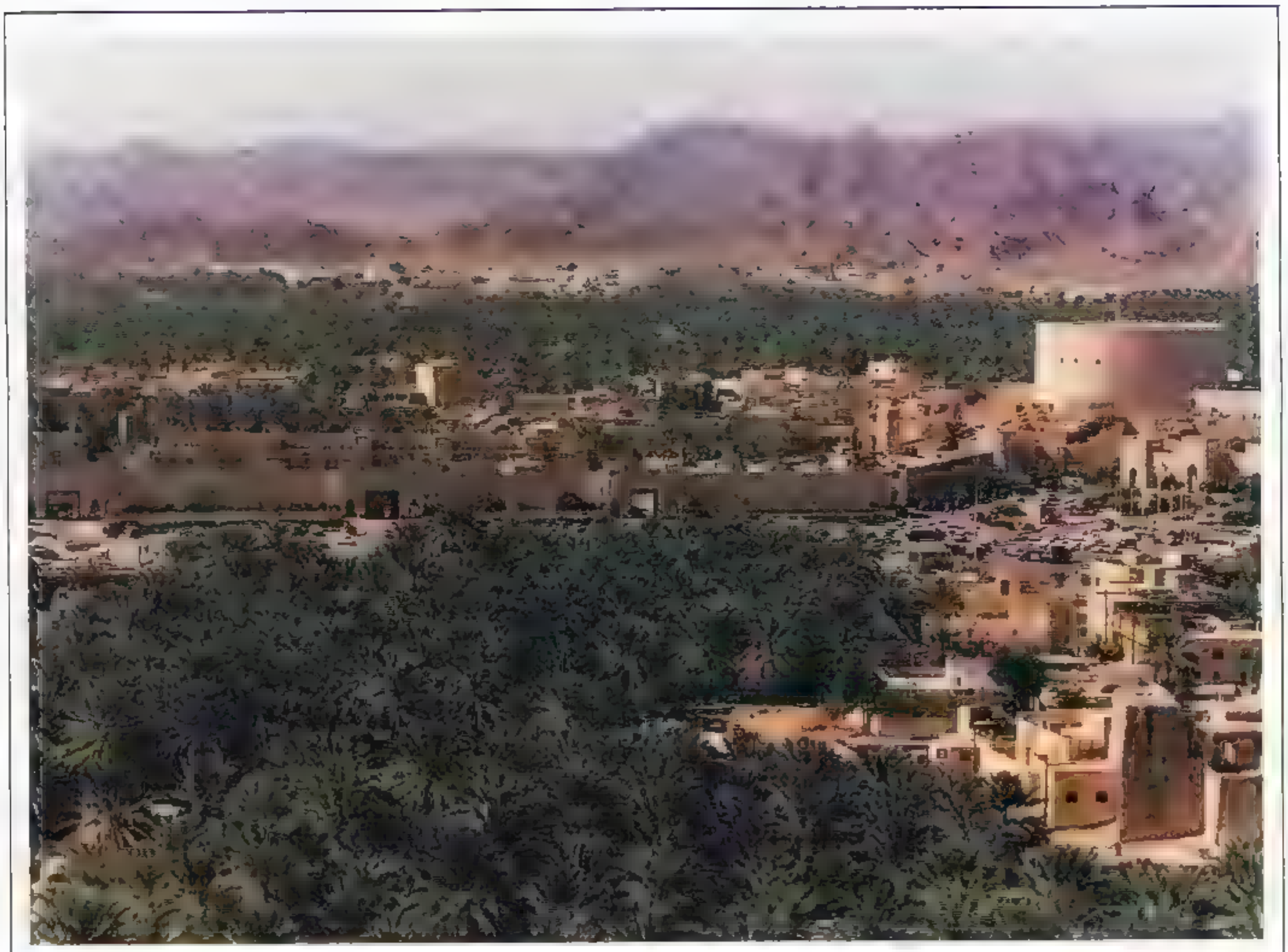

الزراعة

الإنكليزية الأوروبية المتأقلمة مع ظروف البيئة الجديدة.

ورغم أن الفرد كان ينتقل وأسرته من ولاية إلى أخرى دونما حاجة لتنظيم شؤونه من جديد، كان هناك فوارق تميز كل مستعمرة عن غيرها. وقد قسمت المستعمرات إلى ثلاث مجموعات: تضم الأولى أقساماً ثلاثة هم: قسم نيوانجلند الذي احترف أهله التجارة والصناعة، وقسم نشأ في الجنوب وقام فيه مجتمع زراعي وقسم ساحلي إذ استقر قسم من سكان قسم نيوانجلند في المدن والقرى الواقعة حول المرافىء واستغلوا الغابات والأراضي الصالحة لرعي الغنم فاشتغل الكثيرون منهم بالزراعة واقتنوا مزارع كثيرة.

وفي المجموعة الثانية من المستعمرات، أي في الوسطى، كان المجتمع أكثر اختلافاً وتنوعاً في سكانه، وأكثر تسامحاً من مستعمرات نيوانجلند. ففي بنسلفانيا وديلاوير هدف «وليم بن» أحد أعضاء طائفة الكويكرز، وهو رجل عملي، إلى اجتذاب مستوطنين من مختلف العقائد والجنسيات ليجعل من المستعمرة، التي منحه إياها الملك شارل الثاني، قدوة في العدل والاستقامة في معاملة الهنود، وراح يعقد معهم اتفاقات راعاها بدقة وحافظ على السلام في تلك الأرض الموحشة. وسرعان ما وفد إلى هذه المستعمرة ثلاثة آلاف من المواطنين الجدد. وكانت فيلاد لفيا قلبها النابض فاشتهرت بشوارعها الواسعة والأشجار التي تظللها والبيوت المتينة المبنية بالآجر والحجارة

الاستقلال الأميركي

والأرصفة البحرية الناشطة. وحين بلغ عهد الاستعمار نهايته كان يعيش هناك حوالي ثلاثين ألف نسمة يمثّلون لغات وعقائد، ومهن مختلفة.

وجعل أفراد طائفة الكويكرز، وهم معروفون برزانتهم وأناتهم وتبصرهم وحبهم لخير الإنسانية ومواهبهم التي تفجرّت في أعمال ومشاريع عدة، من هذه المنطقة حاضرة أميركا المزدهرة، وذلك في منتصف القرن الثامن عشر.

ومن العوامل التي ساعدت على تقدم مستعمرات الوسط حذق الألمان في الصناعات المنزلية كالنسيج والأحذية والأثاث. إضافة إلى كونها كانت ملاذاً مهماً لهجرة عدد كبير من الإسكتلنديين والإيرلنديين الذين كانوا رجالاً أشداء استحوذوا على الأرض ودافعوا عن حقوقهم بالقوة وتجسّد نيويورك مثالاً للصورة التي طبعت أميركا في تلك المنطقة: فكانت تضم أناساً ينطقون بلغات عديدة وكان المرء يسمع سنة ١٧٤٦ اثنتي عشرة لغة يتكلم بها الناس على طول نهر هدسن.

أما في القسم الثالث، أي ڤرجينيا وماريلاند وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية، فيختلف الوضع عن نيوانجلند والمستعمرات الوسطى. وكانت جيمس تاون في ڤرجينيا أولى المستعمرات التي قدّر لها البقاء في ذلك القسم. وذلك بفضل الكابتن جون سميث الذي وفد إليها في أواخر كانون الأول سنة ١٦٠٦ مع جماعة من المغامرين الساعين وراء الذهب والإثراء السريع لكن انقلاباً اقتصادياً حدث سنة ١٦١٢، بعد اكتشاف طريقة لتحضير تبغ ڤيرجينيا بطريقة تجعله سائغاً مرغوباً لدى الأوروبيين. وحاولت أسرة كلڤرت تأسيس مستعمرة ماريلاند المجاورة لولاية ڤرجينيا، وشجعت أسرة كلڤرت البروتستانت والكاثوليك على السواء على الاستقرار في مستعمرتهم تجنباً للمتاعب التي قد تثيرها الحكومة البريطانية. وحاولت جعل ماريلاند بلداً ارستقراطياً يتمتع مستوطنوه بما يتمتع به الملوك من امتيازات وحقوق. وهكذا امتاز النظام الاجتماعي في ماريلاند وڤرجينيا، في أواخر القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر وحتى قيام الحرب الأهلية، بصفات وخصائص جعلت المستوطنين فيهما من ذوي النفوذ السياسي والملكيات الكبيرة. وكان نمط العيش الارستقراطي والاتجار بالرقيق واستخدامه والبيوت الضخمة ومتابعة الاتصال بمعالم الثقافة في ما وراء البحار من صفات هاتين المستعمرتين. وأصبحت كارولينا الشمالية والجنوبية بمينائها الرئيسي، تشارلستون، مركز الجنوب التجاري ولم يلبث مهاجروها أن جمعوا بين الزراعة والتجارة.

ثم شرع الروّاد يتجهون صوب الغرب وسرعان ما ظهرت داخل البلاد قرى مزدهرة يديرها رجال استقلوا عن الأقاليم القديمة استقلالاً اقتصادياً وروحياً. وكان معظم الذين هجروا المستعمرات الشرقية الأصلية بسطاء مشبعين بروح الاستقلال وكانوا يعيشون على حدود مناطق الهنود. وكانت أكواخهم حصونهم يعتمدون في حماية أنفسهم على نظرهم الحاد وبنادقهم الجيّدة الصنع.

المستعمرات في بدء تكوينها، كانت تتمتع بحرية واسعة في انتهاج الطريق الذي توحيه إليها ميولها أو مقتضيات ظروفها. ولم تشترك الحكومة الإنكليزية اشتراكاً مباشراً في تأسيس مستعمرة من المستعمرات ما

امتلك الهولنديون مستعمرة نيونذرلاند، التي أطلق عليها فيما بعد اسم نيويورك، مدّة أربعين سنة. لكن البريطانيين انتزعوا هذه المستعمرة منهم عن طريق الفتح سنة ١٦٦٤. وظلت العادات الهولندية تضفي على المدينة جواً تجارياً ممتازاً ونوعاً من الإقبال على مباهج الحياة اليومية. على عكس جو بوسطن القاسي الذي أضفته جماعة البيوريتان عليها. وعمل حاكم نيويورك الإنكليزي على إعادة تنظيم التشريع فيها بما يتلاءم مع التقاليد الإنكليزية وقام بعمله بحكمة ولباقة أكسبتاه صداقة الهولنديين والإنكليز في آن. وما هي إلاّ سنوات حتى اندمجت العادات والتقاليد الهولندية بالأنظمة والأساليب الإنكليزية.

وكان يعيش في نيويورك سنة ١٦٩٦ حوالي ثلاثين ألف نسمة وازدهرت المزارع العظيمة على حوض نهري الهدسن والموهوك. وساعد مستأجرو الأراضي وصغار الملاكين على تقدُّم الزراعة في هذا الإقليم.

الاستقلال الأميركي

عدا مستعمرة جورجيا. لكنها بدأت تدريجياً تشترك في توجيه هذه المستعمرات من الناحية السياسية، وتخلّى الملك عن سلطانه المباشر على مستعمرات الأرض الأميركية الجديدة إلى الملاّكين هناك والشركات المساهمة. هذا لا يعني أن المستعمرين في أميركا قد تحرروا كلياً أو جزئياً من الإشراف الخارجي. فقد نص ترخيص مستعمرتي ڤرجينيا وخليج ما ساتشوستس، مثلاً، على منح الشركات صاحبة الشأن السلطة التامة في الحكم على أن تتخذ انكلترا مقراً لها. فلا يكون لأهالي أميركا صوتاً في حكومتهم ويصبح الملك حاكماً بصورة مطلقة على المستعمرات الجديدة.

هذا الحكم المطلق سرعان ما تحطّم: وكانت الخطوة الأولى في هذا السبيل قراراً اتخذته شركة لندن (فرجينيا) يسمح لمستعمريها بأن يكون لهم حق التمثيل في الحكومة. ونَصّت التعليمات التي وجهتها الشركة سنة ١٦١٩ إلى الحاكم هناك بأن ينتخب الأحرار من أهالي المزارع الواسعة ممثلين عنهم يشاركون الحاكم والمجلس المعين في سن القوانين المعتمدة داخل المستعمرة.

ولم تقف السلطات البريطانية مكتوفة الأيدي إزاء ما تمتعت به المستعمرات من نصيب وافر في الحكم الذاتي فأقامت دعوى ضد الشركة التي تحمل ترخيص ماساتشوستس وألغي هذا الترخيص سنة ١٦٨٤ وأصبحت جميع مستعمرات نيو انجلند تحت إشراف الملك ووضعت السلطة التامة بيد حاكم معيَّن من قبله. لكن المستعمرين اعترضوا بشدة على هذا التطور الأخير وطردوا الحاكم الذي تم تعيينه عقب الثورة التي قامت في انكلترا سنة ١٦٨٨ وانتهت بعزل جيمس الثاني.

وفي سنة ١٧٦٣، بدأ الخلاف صريحاً بين انكلترا وأميركا من الناحية العملية. فنمو المستعمرات واتساع رقعها كان عميق الأثر، إضافة إلى النمو السكاني الناتج عن تدفق المهاجرين الأوروبيين طوال القرن الثامن عشر. وكانت بريطانيا حتى سنة ١٧٦٣ تتبع سياسة تجارية تحتّم على المستعمرات إمدادها بالمواد الخام وعدم منافستها في التصنيع. ولكن هذا المبدأ كان يفتقر إلى التنفيذ لأن كل شيء في البيئة الجديدة كان يدعو أهل المستعمرات الأميركية لتناسي قوة الحكومة البريطانية أو الحاجة إليها.

ولم تعد القوانين الإنكليزية تلائم الغابات والأراضي الجديدة فاستبدلت بقوانين أخرى جديدة سنّها المستعمرون أنفسهم. واستفاد الوافدون إلى المستعمرات من الجو العام ليتخلوا عن التقاليد الإنكليزية الموروثة في سبيل الحرية السياسية ودُوِّنت المبادىء، التي تمخض عنها نضالهم الطويل بصورة رسمية في ميثاق ڤيرجينيا الأول الذي خوّل المستعمرين الإنكليز حق ممارسة الحريات جميعها وحق التصويت والإعفاء من إداء الواجبات وتمتعوا بمزايا «الماغنا كارتا» والقانون العام.

وقبيل العقد الثامن من القرن الثامن عشر بُذِلت محاولات لتعديل العلاقات بين المستعمرات وانكلترا تعديلاً جوهرياً، إثر حركة طرد الفرنسيين من أميركا الشمالية: فالإنكليز كانوا يملأون منطقة ساحل الأطلسي والفرنسيون كانوا يؤسسون نظاماً استعمارياً في وادي سانت لورنس في شرقي كندا واستولوا على نهر المسيسيبي وأقاموا تدريجياً امبراطورية على شكل هلال عظيم من الحصون والمراكز التجارية يمتد بين كويبك في الشمال الشرقي حتى نيو أورولياننز في الجنوب، عاملين بذلك على حصر البريطانيين في الجزء الضيق الممتد شرقي جبال الأبالاش.

قاوم الإنكليز طويلاً ما اعتبروه تعدياً من الفرنسيين فوقعت اشتباكات دامية بين المستعمرين الفرنسيين والإنكليز كانت على التوالي بين سنة ١٦٨٩ ـ ١٦٩٧، بين ١٧٠١ ـ ١٧١٣، بين ١٧٤٤ ـ ١٧٤٨. لكن الصراع دخل مرحلته النهائية حوالي العقد السادس من القرن الثامن عشر. فقد أحكم الفرنسيون قبضتهم على وادي المسيسيبي بعد صلح «إكس لاشابيل» سنة ١٧٤٨. ونشط في الوقت نفسه انتقال المستعمرين الإنكليز عبر جبال «Alleghenien» فبدأ السباق للاستيلاء الفعلي على هذا الإقليم وأدى ذلك إلى وقوع صدام مسلح سنة ١٧٥٤ بين الجنود الاحتياطيين في ڤيرجينيا بقيادة

الاستقلال الأميركي

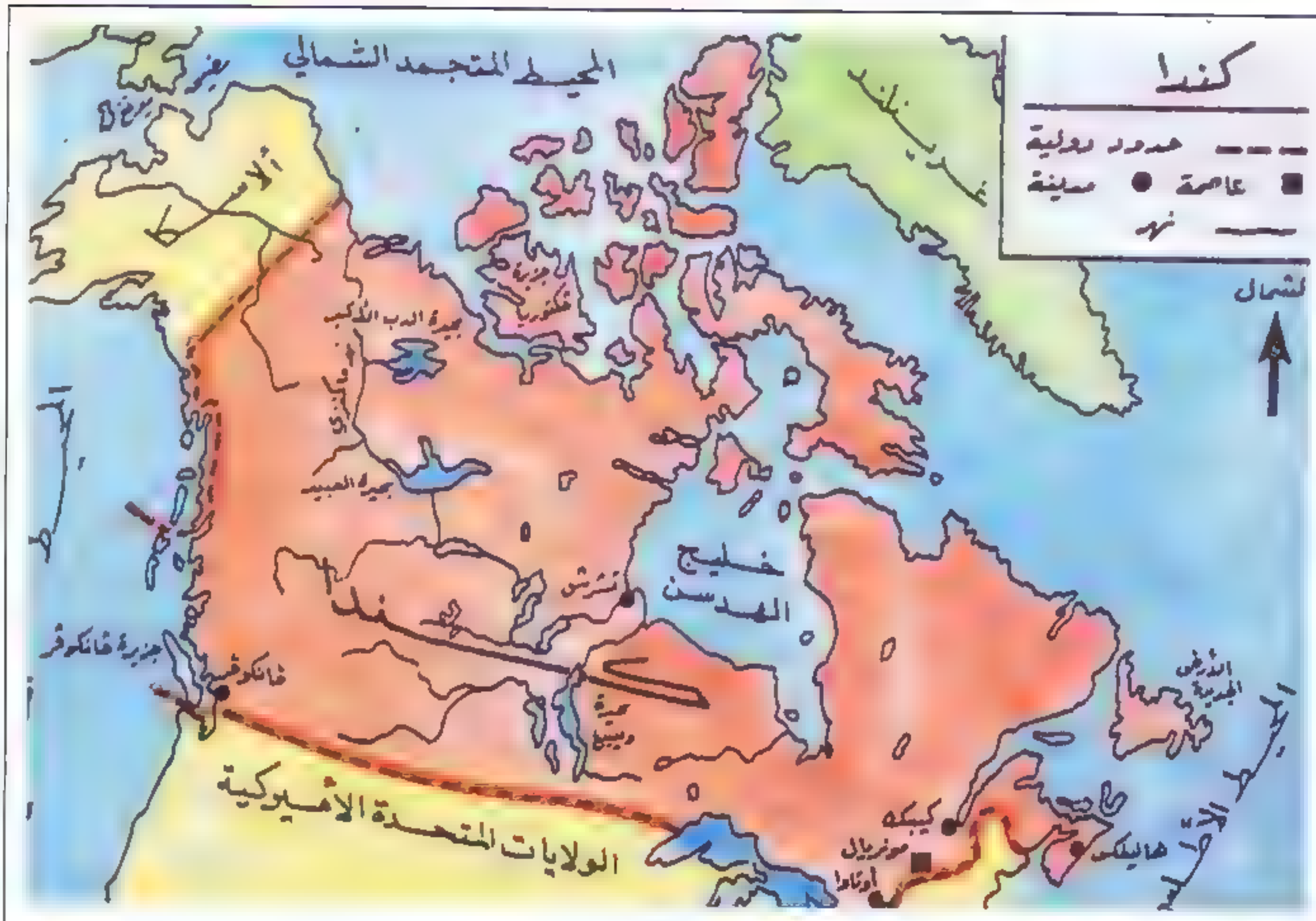

كندا

جورج واشنطن وكان في الثانية والعشرين من عمره وبين فرقة من الجيش النظامي الفرنسي. وكان يدعم كل من الفريقين المتصارعين مجموعة من الهنود.

مساهمة المستعمرات في الحرب كانت فاترة خجولة: فقد اعتبرت الصراع إنكليزياً ـ فرنسياً هدفه التوسع الامبراطوري. وساعد مركز انكلترا الاستراتيجي وكفاءة قوادها على تحقيق النصر التام لها. وبعد ثماني سنوات من الصراع فتحت كندا ووادي المسيسيبي الأعلى نهائياً وقضت على حلم الأمبراطورية الفرنسية في أميركا الشمالية.

بعد الانتصار على فرنسا، كان على بريطانيا أن تواجه مشكلة تنظيم امبراطوريتها الواسعة ليس في أميركا فقط بل في الهند أيضاً، وفي عالم الاستعمار بوجه عام، والتوفيق بين المصالح المتباينة للمناطق والشعوب المختلفة وتوزيع نفقات الامبراطورية بالتساوي. فقد ازدادت مملتكاتها في أميركا إلى أكثر من الضعف. وبينما كان الشعب السائد من الإنكليز البروتستانت أصبح الآن يشمل فرنسيين كاثوليك وعدداً كبيراً من الهنود الذين اعتنقوا المسيحية. وهذا ما تطلب مبالغ ضخمة وزيادة كبيرة في عدد الموظفين.

وعالجت بريطانيا المشكلة، مشكلة التنظيم الداخلي، بأن اتبعت سياسة تعارضت مع مصالح المستعمرات الساحلية التي كانت ترمي إلى استغلال الأراضي المكتسبة حديثاً نظراً لتزايد عدد سكانها المستمر: فالناس تدفقوا عبر الممرات الجبلية في تيار جارف غرباً نحو المسيسيبي. وخشيت الحكومة البريطانية أن يثير ازدحام طلائع الزارعين في الأراضي الجديدة سلسلة من الحروب الهندية فخصّص الإعلان الملكي الصادر سنة ١٧٦٣

الاستقلال الأميركي

لوحة تمثل المستعمرات الأميركية

جميع الأقاليم الغربية بين جبال الجيني وفلوريدا والمسيسيبي وكويبك للهنود. وقضى بذلك على مطالب المستعمرات الثلاث عشرة في الأراضي الغربية. وكان هذا التدبير بنظر أهل المستعمرات إغفالاً استبدادياً ألحقه بهم التاج الملكي.

وكانت سياسة بريطانيا المالية أكثر خطراً على المستعمرات: فقد كان على هذه الأخيرة أن تؤدي نصيبها من نفقات الامبراطورية التي كانت تتضاعف يوماً بعد يوم وهذا لا يتم إلاّ عن طريق إدارة مركزية قوية تقوم على حساب الحكم الذاتي للمستعمرات. وكان قانون السكر الذي أقرّ سنة ١٧٦٤ هو الخطوة الأولى في النظام الجديد، فقد وضع كبديل لتنظيم التجارة وفرض ضريبة بسيطة على العسل المستورد من جميع الجهات وعلى النبيذ والحرير والبن وبعض الكماليات الأخرى. وصدرت تعليمات إلى رجال الجمارك بأن يكونوا أكثر نشاطاً ودقة في تنفيذ القانون وزوّدت السفن الحربية البريطانية الراسية في المياه الإقليمية الأميركية بالتعليمات اللازمة للقبض على المهربين وفوّض ضباط الملك بتفتيش الأماكن المشبوهة.

وجد أهل المستعمرات في «قانون السكر» فرصة سانحة لإبداء استيائهم على أساس دستوري. بعد ذلك سن البرلمان الإنكليزي قانوناً للعملة يسلب الأوراق المالية التي تصدرها أية مستعمرة من مستعمرات صاحب الجلالة صفتها القانونية. وأضاف هذا القانون حملاً ثقيلاً إلى الأعباء التي كان ينؤ بها الاقتصاد في المستعمرات.

وكانت آخر التدابير التي أثارت السخط العنيف «قانون التمغة» المشهور الذي تقرّر بموجبه تخصيص دخل التمغة المفروضة على جميع

الاستقلال الأميركي

الصحف والبطاقات والكتيبات والرخَص والإيجارات والوثائق القانونية الأخرى، للإنفاق على أغراض الدفاع وحماية المستعمرات والمحافظة عليها.

أثار قانون التمغة موجة من العنف والسخط والعداوة بين رجال الصحافة والمحامين ورجال الدين والتجار ورجال الأعمال. وظهر أثره جلياً في جميع أنحاء البلاد. وسرعان ما نظّم كبار التجار، الذين تعرَّضت أذون شحن بضائعهم للضريبة، وسائل مقاومة وألّفوا الجمعيات لوقف الاستيراد وتعطّل دولاب العمل فترة من الزمن وهبطت التجارة مع انكلترا هبوطاً كبيراً في صيف سنة ١٧٦٥. وألّف الرجال البارزون جماعة «أبناء الحرية». وسرعان ما لجأت المعارضة السياسية إلى العنف وسارت الجماهير الملتهبة في شوراع بوسطن. وأبطل عمل القانون في ما ساتشوستس وفي كارولينا الجنوبية واستقال بعض الوكلاء وأتلفت طوابع التمغة البغيضة.

وتنادى سكان المستعمرات، بتأثير من باتريك هنري، إلى عقد مؤتمر في نيويورك في أكتوبر سنة ١٧٦٥، فانتهز سبعة وعشرون رجلاً قديراً ومقداماً، الفرصة لاستفزاز الرأي العام الأميركي ضد تدخل البرلمان الإنكليزي في شؤون المستعمرات الداخلية. وأصدر المؤتمر قرارات عدَّة تؤكد جميعها رفض فرض الضرائب إلا بواسطة مجالسهم التشريعية وسنة ١٧٦٦ خضع البرلمان الإنكليزي وأبطل قانون التمغة وعدَّل كثيراً من قانون السكَّر. فاستكان «أبناء الحرية» وعادت التجارة إلى مجراها وبدا السلام قريب المنال.

لكن ذلك لم يكن سوى هدنة، فقد بدأت سنة ١٧٦٧ سلسلة أخرى من التدابير أثارت من جديد النزاع بكافة عوامله: فقد عمد شارل تاونسند، وزير المالية البريطانية، إلى وضع نظام مالي جديد للحكومة. وضيَّق الخناق على إدارة الجمارك وأيّد فرض ضرائب على الورق والزجاجُ والرصاص والشاي المصدَّر من بريطانيا إلى المستعمرات. وكان التذمر الذي تلا تطبيق ضرائب تاونسند شديداً إلى حد جعل التجار يلجأون إلى عدم الاستيراد.

وسنة ١٧٧٠، تقهقر البرلمان الإنكليزي في مواجهته لهذه المعارضة الشديدة، وألغى جميع الضرائب، ضرائب تاونسند ما عدا ضريبة الشاي لأنه ـ كما قال جورج الثالث ـ «لا بد أن تبقى ضريبة واحدة ليبقى حق فرض الضرائب قائماً».

وبعد ثلاث سنوات عادت الأوضاع لتتأزم من جديد بسبب منح الحكومة الإنكليزية حق احتكار الشاي المصدَّر إلى المستعمرات الأميركية لشركة الهند الشرقية، وبسبب قانون مساكن الجند الذي يفرض على السلطات المحلية توفير السكن المناسب للجنود البريطانيين فإذا ما تباطأت في القيام بواجبها أصبح من حق الحاكم استعمال الفنادق والحانات وغيرها من المباني لهذا الغرض، إضافة إلى حقه في تعيين القضاة والعُمدَ وعزلهم. وأخيراً جاء قانون كويبك الذي منح الفرنسيين حق التمتع بالحرية الدينية وممارسة شعائرهم. فعارضه أهل المستعمرات لأنهم اعتبروه تطويقاً لمستعمرات الشمال الغربي ولإغفاله حقوقهم في التوسع نحو تلك الأراضي.

وفي ١٥ أيلول سنة ١٧٧٤ اجتمع ممثلو المستعمرات في فيلادلفيا للتشاور في أحوال المستعمرات السيئة الراهنة، فكان ذلك بمثابة المؤتمر الأول للقارة الأميركية. وانبثقت عنه «الرابطة» التي حبَّذت عودة المقاطعة التجارية ونظام لجان التفتيش في كل

ارتدى الرجال، في تلك الفترة، المنسوجات المحلية ووجدت النساء بديلاً عن الشاي واستعمل الطلبة ورقاً محلياً من صنع المستعمرات وظلت المنازل دون طلاء. واشتد هياج أهل المستعمرات لتنفيذ تلك الأنظمة وثار الشعب على عمّال الجمارك حيثما بدأوا بجباية الضرائب وهاجمتهم الجماهير بعنف ممّا استوجب إرسال فصيلتان من الجند لحمايتهم. وبعد ثمانية عشر شهراً من التذمر اشتعل العداء بين المواطنين وبين الجنود وصدر الأمر بإطلاق النار فسقط ثلاثة من أهل بوسطن صرعى على الجليد. وكان ذلك سبباً لإشعال العداوة ضد بريطانيا. وأطلق على هذه الحادثة اسم «مذبحة بوسطن» وصوّرت تصويراً مؤلماً مثيراً.

الاستقلال الأميركي

مدينة أو مقاطعة لمراقبة عدم الاستيراد أو التصدير والاستهلاك. وعهد المؤتمر كذلك إلى لجان أخرى أمر تنفيذ القيود الجمركية وإذاعة أسماء التجار الذين ينقضون الاتفاقات ومصادرة وارداتهم. هكذا سعت الرابطة واللجان المحلية المنبثقة عنها للتخلص من بقايا السلطة الملكية. وقامت حركة اضطهاد قوية بوجه الموالين لإنكلترا فكان أصحاب المطاحن يرفضون طحن قمحهم والعمّال يمتنعون عن العمل معهم فلم يعد باستطاعتهم البيع أو الشراء وأعلنت خيانتهم وأذيعت أسماؤهم.

وفي ٢٠ شباط سنة ١٧٧٥ سار الجنرال «جيدج» البريطاني بقواته إلى داخل البلاد لينفذ قوانين البرلمان الأخيرة. وحين وصلت إلى مسامعه أنباء عن قيام الوطنيين في ماساشوستيس بجمع البارود والعتاد الحربي عند مدينة كونكورد، أرسل في ١٨ أبريل سنة ١٧٧٥ قسماً كبيراً من حاميته لمصادرة هذه الذخيرة وإلقاء القبض على صموئيل آدمز وجون هانكوك اللذين أمر بإرسالهما إلى انكلترا لمحاكمتهما جنائياً. فثارت المستعمرة وحصلت اشتباكات بين الوطنيين والجنود.

واستجاب سكان القرى والضياع في المنطقة جميعها وأصيب الجيش الإنكليزي بخسائر فادحة.

في تلك الأثناء عُيِّن جورج واشنطن قائداً عاماً للقوات الأميركية. ورغم ذلك ظل قسم كبير من الشعب الأميركي رافضاً لفكرة الانفصال التام عن انكلترا. وفي ٢٣ أغسطس من سنة ١٧٧٥ أصدر الملك جورج تصريحاً أعلن فيه أن المستعمرات في حالة عصيان. وزادت سلطة المتطرفين «الراديكاليين» الذين ألهبوا عقول الوطنيين بالقرارات المثيرة فاتخذ المؤتمر الذي عُقد في ١٠ مايو سنة ١٧٧٦ قراراً يحبذ الاستقلال والتحالف الأجنبي والاتحاد الأميركي.

تلك كانت الشرارة الأولى للثورة: فقد تنادى ممثلو المستعمرات الثلاث عشرة وعقدوا مؤتمراً ثانياً في فيلادلفيا في ١٠ مايو سنة ١٧٧٥ برئاسة جون هانكوك وحضور توماس جيفرسون وبنيامين فرانكلين. وصدر عن المؤتمرين الإعلان التالي: «إن قضيتنا عادلة واتحادنا كامل ومواردنا الداخلية عظيمة وإذا دعت الضرورة يمكن الحصول على المساعدة الأجنبية فالسلاح الذي اضطرنا أعداؤنا لحمله سنستخدمه لحفظ حرياتنا وقد عقدنا العزم على أنه خير لنا أن نموت أحراراً من أن نعيش عبيداً».

واستعرت الحرب طوال ست سنوات واشتعل القتال في كل مستعمرة ووقعت اثنتا عشرة معركة حربية هامة. ومني الأميركيون بسلسلة من الهزائم الفادحة في الشهور التي تلت إعلان الاستقلال وخاصة في نيويورك. لكنهم، بعد خريف سنة ١٧٧٧، أحرزوا أعظم انتصاراتهم في الحرب في معركة فرمونت بمساعدة من الفرنسيين أعداء انكلترا الدائمين. واضطرت بريطانيا إلى إخلاء فيلادلفيا سنة ١٧٧٨ بسبب تهديد الأسطول الفرنسي. ومنيت بهزائم في وادي أوهايو. وفي شتاء ١٧٧٩ ـ ١٧٨٠ حضّ لافاييت حكومته الفرنسية على أن تبذل جهداً حقيقياً لإنهاء الحرب. فأرسل لويس السادس عشر حملة من ٦٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال روشامبو. فزادت متاعب البريطانيين في تزويد جيوشهم بالمؤن والإمدادات. وتكبدت التجارة البريطانية خسائر فادحة بسبب السفن الفرنسية والأميركية الخاصة التي كانت تخترق منطقة الحصار وبسبب الحملات البحرية الجريئة التي قام بها الكابتن جون بول جوس. كما قاست بريطانيا من تدخل إسبانيا وهولندا في الحرب. وفي ١٩ أكتوبر سنة ١٧٨١ انتهت الأعمال الحربية. ووافق مجلس العموم على إنهاء الحرب بعد انتصار الأميركيين في معركة «يورك تاون»، فاستقال اللورد نورث رئيس الوزراء، وشكل الملك حكومة جديدة لإبرام الصلح على أساس الاستقلال الأميركي. وبدأت مفاوضات الصلح في أبريل سنة ١٧٨٢ واستمرت حتى نهاية شهر نوفمبر حين وقّعت معاهدات مبدئية مع الحكومة البريطانية، لكنها لم تصبح نافذة المفعول إلاّ بعد أن عقدت فرنسا معاهدة الصلح مع بريطانيا العظمى.

وسنة ١٧٨٣ وقّعت تلك

الاستقلال الأميركي

لوحة تمثل السفن البريطانية

المعاهدات بصفة نهائية. وتم الاعتراف باستقلال الولايات الثلاث عشرة وحريتها وسيادتها ومنحتها بريطانيا الأراضي التي تطمح إليها غربي المسيسيبي حتى الحدود الشمالية على أن يعيد الكونغرس الأميركي الأملاك التي صادرها من الأميركيين الذين كانوا موالين لإنكلترا، إلى أصحابها ومنحت الولايات المستقلة أيضاً، امتياز صيد السمك قرب نيوفونلاند وتجفيف الأسماك في الجهات غير المستوطنة بين نوڤاسكوتيا ولبرادور.

هكذا تحرّر الأميركيون من السيطرة الخارجية وأصبحوا أحراراً في تأسيس مجتمعهم وفق الأفكار السياسية التي أوحت بها البيئة الجديدة وأهمها: أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وأن تتولى حكومة ذاتية محلية الحكم في كل مستعمرة من المستعمرات. وبعد أن كان حق الانتخاب محصوراً أصبح حقاً عاماً وانتشرت عقيدة «حقوق الإنسان» في أنحاء العالم كله. وحالما انتهت الثورة وفد على أميركا كل محب للحرية من كافة أقطار العالم القديم.

• القرن التاسع عشر ومسألة الرق في أميركا:

في منتصف القرن التاسع عشر، كانت الولايات المتحدة أكثر دولة تتجه أنظار الدول الأخرى إليها: فالزائرون يفدون بكثرة إليها، والناس ينظرون بشيء من العطف إلى الأمة الحديثة، والزوار معجبون بمدينة بوسطن وخليجها الرائع والمدن الزاهرة التي تنشىء في البراري الشاسعة مثل يوتيكا وسيراكيوز وأوبر.

وكان الزائرون يلمسون مدى الرخاء والتقدم السريع في ميادين الزراعة والتجارة، كلما توغلوا في الولايات الشمالية. فقد تميّزت نيويورك بمنظرها المشرق المتألق ومبانيها الشاهقة وواجهات مخازنها المتلألئة. وتميّزت فيلادلفيا بميادينها الجميلة وطرقاتها الوسيعة الظليلة وبيوتها الحمراء والأنيقة ذات المداخل الحجرية البيضاء. وازدهرت الصناعات في الشرق والزراعة في أواسط الغرب والجنوب. وربطت السكك الحديدية بين جميع المناطق الآهلة بالسكان برباط وثيق وتدفق الذهب الذي تفجّر من مناجم كاليفورنيا إلى جميع ميادين التجارة.

وسرعان ما تكشّف لهؤلاء الزائرين أن أميركا ليست واحدة بل اثنتين: واحدة في الشمال والثانية في الجنوب. وأدركوا أن سرعة التقدم تحمل في طياتها مخاطر كامنة تهدد استمرار التوافق والانسجام بين القسمين: فولاية نيوإنجلند وولايات ساحل المحيط الأطلسي شكلت مراكز رئيسية للتجارة والصناعة والمال وتنوعت منتوجاتها وسلعها. وبلغت في الملاحة أقصى درجات التقدم وجابت السفن السبع يرفرف عليها العلم الأميركي توزّع البضائع المستوردة من جميع أنحاء العالم. وفي الجنوب ازدهرت الزراعة وأصبح القطن مصدراً رئيسياً للثورة وانتشرت زراعة القصب والأرز على طول الساحل في ولاية لويزيانا وعمّت زراعة التبغ واشتهرت مناطق الغرب الأوسط بمراعيها الشاسعة وسرعة تزايد السكان. وكانت أوروبا والولايات الأميركية بحاجة إلى قمح هذه الأقاليم

الاستقلال الأميركي

السفن التجارية

ومنتجات لحومها. فسجّلت رقماً قياسياً في استخدام الآلات والإنتاج.

لكن تعارض المصالح بين الشمال والجنوب أخذ يتضاعف على مر السنين فكان أهل الجنوب يستنكرون الأرباح الضخمة التي يجنيها رجال الأعمال من أهل الشمال من بيع محصول القطن. ويبرّرون تأخرهم بتوسع الشماليين ومحاولتهم بسط نفوذهم. بينما أعلن أهل الشمال أن الرق، وهو نظام شاذ أقر أهل الجنوب ضرورته لحفظ كيانهم الاقتصادي، ليس إلاّ سبباً في تأخرهم النسبي.

وأخذت بوادر الخلاف تظهر، بل تشتد حول مسألة الرق منذ سنة ١٨٣٠. فقد تعالت أصوات تطالب بإلغاء الرقيق وخصوصاً في ولايات الشمال. وقامت حركة «الأرض الحرة» تعارض انتشار الرقيق. وكان عدد الزنوج يبلغ في ولايات الجنوب الخمس عشرة، بعد مائتي عام، أي سنة ١٨٥٠، عدداً يقارب نصف عدد البيض، بينما لم يتجاوزوا في الشمال نسبة ضئيلة.

ومنذ منتصف العقد الرابع من القرن التاسع عشر احتلت مشكلة الرقيق المكانة الأولى في السياسة الأميركية. وقد اعتبر معظم مزارعي الجنوب أن الرقيق عامل أساسي في كيانهم الاقتصادي: فزراعة القطن تتلاءم مع نظام استخدام العبيد والآلات البدائية تستخدم في إنجاز العمل طوال تسعة أشهر من العام.

وبعد سنة ١٨٣٠ تلاشى إشراف السيد المباشر على عبيده، وأصبح صاحب الأرض يستخدم مشرفين محترفين تعتمد سمعتهم على مدى استغلالهم للعبيد. وكان هناك أمثلة عديدة للقسوة التي كان بعض أصحاب المزارع يعاملون الزنوج بها. في سنة ١٨٥٠ كان سبعة أثمان حاجات العالم من القطن تزرع في الولايات الأميركية الجنوبية. فاستتبع هذه الزيادة زيادة أخرى في الرقيق. وأصبح هدف سكان الجنوب الرئيسي، في مجال السياسة الوطنية، الدفاع عن مصالحهم المتمثلة باقتناء العبيد وزراعة القطن وتدعيم هذه المصالح والتوسع فيها.

لكن الكونغرس الأميركي كان قد ألغى، بصورة نهائية، تجارة الرقيق من أفريقيا منذ سنة ١٨٠٨. وبلغت حركة إلغاء الرق في أقصى مراحلها، حرباً لا هوادة فيها تحدّت في منتصف القرن التاسع عشر جميع الضمانات الدستورية والقانونية التي تحمي نظام الرق.

ومرّت حركة مكافحة الرق بمرحلة مساعدة العبيد على الفرار تحت جنح الظلام إلى ملاجىء آمنة في الشمال أو عبر الحدود إلى كندا. وعرفت هذه الحركة باسم «الطريق الحديدي السرّي» وقدّر عدد العبيد الذين ساعدتهم هذه الحركة على التحرّر بما لا يقل عن ٤٠ ألف هارب في الحقبة الممتدة بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٦٠. وازداد عدد الجمعيات المحلية المناهضة للرقيق زيادة عظيمة حتى بلغ عددها سنة ١٨٤٠ نحو ألفين وبلغ عدد أعضائها حوالي المائتي ألف. وتحولت مشكلة الرق من مسألة أخلاقية إلى قضية سياسية وذلك بعد انضمام تكساس سنة ١٨٤٥ والمقاطعات الواقعة في الجنوب الغربي التي تم الاستيلاء عليها بعد حرب المكسيك. وقدّمت ٤ اقتراحات

الاستقلال الأميركي

متضاربة للولايات المتحدة حين قرّرت ضم تلك المناطق: أهل الجنوب أشاروا بفتح هذه الأراضي على مصراعيها للرق والعبيد، أهل الشمال الأقوياء المناهضون للرق طالبوا بإقفال المناطق الجديدة في وجه الرق، واقترح جماعة من المعتدلين بأن يمتد خط ميسوري إلى المحيط الهادىء على أن تكون الولايات الحرة في شماله وولايات العبيد في جنوبه، واقترحت جماعة معتدلة أخرى أن تترك المسألة «للسيادة الشعبية» أي أن تسمح الحكومة بتدفق المهاجرين إلى الأرض الجديدة بعبيدهم إن شاؤوا وبدون عبيد وحين يحين وقت تنظيم المنطقة وتقسيمها إلى ولايات يكون لسكانها أنفسهم حق الفصل في تلك المسألة.

في سنة ١٨٤٨ صوت نحو ثلاثمئة ألف رجل لمرشحي «حرب الأرض الحرّة» الذين أعلنوا أن أفضل سياسة هي تلك التي تحد من العبودية وتحصرها وتناهضها. وعجّل اكتشاف الذهب في كاليفورنيا في يناير سنة ١٨٤٨ باندفاع الباحثين عن الذهب من جميع أنحاء العالم، فقد بلغ مجموعهم أكثر من ٨٠ ألف مهاجر سنة ١٨٤٩. وأصبحت كاليفورنيا مشكلة معقدة إذ كان على الكونغرس أن يقرر مصيرها قبل أن تنشأ فيها حكومة منظمة. وتقدّم السناتورهنري كلاي بمشروع حل إلى الكونغرس فتمّ التصديق عليه بعد تعديله وجرى الاعتراف، بموجبه، بكاليفورنيا كولاية ذات دستور يحتّم «حرية الأرض» أي أنه يُحَرّم الرق فيها ولكنه لم يأت على ذكر هذا الموضوع حين أشار إلى الأراضي المنضمّة إلى ولايتي نيومكسيكو ويوتا. كما اقترح أن تتنازل تكساس عن الجزء الذي تطالب به نيومكسيكو مقابل دفع عشرة ملايين دولار وأن تتخذ الإجراءات الفعالة للقبض على العبيد الهاربين وإعادتهم إلى أسيادهم، وأن تلغى النخاسة وليس الرق في كولومبيا واشتهرت هذه التدابير باسم «اتفاق سنة ١٨٥٠».

وتنفست الأمة الصعداء في السنوات التي تلت هذا الاتفاق لكن التوتر ظل في الخفاء. وأغضب قانون العبيد الجديد الكثيرين من أهل الشمال. فرفضوا المساهمة في القبض على العبيد وساعدوهم على الفرار وازدادت مهارة جمعية «الطريق الحديدي السرّي» في مساعدة الكثيرين من العبيد للوصول إلى بر الأمان.

وسنة ١٨٥٤ احتدم الجدل حول موضوع الرقيق القديم. ولكن هذه المرة في إقليم نبراسكا الشاسع.

ضرب إبراهام لنكولن، حين أصبح مرشحاً منافساً لستيفن دوغلاس في انتخابات مجلس الشيوخ عن ولاية إلينوي، على الوتر الحسّاس في التاريخ الأميركي. فقد قال في إحدى خطبه: «إن بيتاً منقسماً على نفسه لا يستطيع البقاء، وهذه الحكومة لن يكتب لها بقاء أو استمرار ما دام نصفها أرقاء والنصف الآخر أحراراً.

وتفاقم النزاع وأصبح عنيفاً يثير المرارة في النفوس وعقد أهل الجنوب المتطرفين العزم على التخلص من اتفاق ميسوري الذي أقفل الوادي المذكور بوجه الرق وحين اتخذوا الخطوات اللازمة لذلك قام أهل الشمال بوجههم.

من الناحية الاجتماعية، كان الشمال أكثر ديمقراطية من الجنوب: فازدهرت فيه الطبقة الوسطى وعُظم نفوذها بينما كانت مجموعة صغيرة في الجنوب تتحكم بالعبيد وتستولي على معظم الثورة والنفوذ.

وسنة ١٨٦٠، في انتخابات الرئاسة، دخل الحزب الجمهوري المعركة متحداً وقرّر في اجتماع عقد في شيكاغو ترشيح إبراهام لنكولن للرئاسة وكان ملايين الناخبين متضامنين معه في عدم سماحه للرق بالانتشار وفي وعد الحزب بفرض تعرفات جمركية لحماية الصناعة والتعهد لأهل الشمال بإفساح المجال أمامهم لتملك الأراضي، وبأن يسن قانوناً يمنح الأراضي للأهالي دون مقابل. وفاز إبراهام لنكولن والجمهوريون بنصر حاسم. وقرّرت ولاية كارولينا الجنوبية الانفصال عن الاتحاد. لكن لنكولن رفض في ٤ مارس سنة ١٨٦١، في خطابه الافتتاحي، الاعتراف بذلك الانفصال الذي اعتبره باطلاً من الناحية القانونية. ولم يستجب الجنوب لندائه المؤثر بالعودة إلى روابط المودة السالفة، فأطلقت المدافع في ١٢ إبريل من السنة

الاستقلال الأميركي

نفسها على ميناء فورت صمتر في شارلستون بكارولينا الجنوبية ودُقَّت الطبول في كل قرية ومدينة وهرع الشبان إلى حمل السلاح. وكان هناك ٨٠٠٠٠ ألف جندي يقاتلون في صفوف الجنوب وضعف هذا العدد أو ثلاثة أضعافه في صفوف الشمال: منهم أكثر من ٥٠٠٠٠٠ ألف رجل من البيض وأكثر من ١٠٠٠٠٠ ألف من العبيد جنَّدتهم الولايات المنفصلة. وبعد معارك حامية الوطيس انتصر الشمال على الجنوب وأعادت الولايات الجنوبية انضمامها إلى ولايات الشمال واعتُرف للعبيد بحقوق المواطن الكامل أي حق التصويت وشغل المناصب وضمنت لهم المساواة الاجتماعية والسياسية إسوة بالمواطنين البيض. وانتهى حكم الشماليين في الجنوب سنة ١٨٧٧ أي بعد اثنتي عشرة سنة وبدأت الجهود تبذل لإعماره من جديد وإصلاح ما خربته الحرب وفوضى الأحداث.

وبلغت الولايات المتحدة سن الرشد بين الحرب الأهلية والحرب العالمية الأولى. فقد تحوَّلت في أقل من خمسين سنة من جمهورية ريفية إلى دولة مدنية ولم يعد للحدود أثر وانتشرت في أرجاء البلاد معامل عظيمة ومصانع للصلب ومدن مزدهرة ومزارع شاسعة. وبلغ عدد البراءات الاختراعية التي مُنحت للأفراد بين سنة ١٨٦٠ و١٨٩٠ حوالي ٤٤٠٠٠٠ ألف براءة وبلغ عدد هذه البراءات في الربع الأول من القرن العشرين نحو المليون.

● النضال مع إسبانيا سنة ١٨٩٨:

تجلَّت وحدة الأميركيين، في فترة الخمسين سنة المذكورة آنفاً، في النضال مع إسبانيا سنة ١٨٩٨: فقد انفجر غضب أهل كوبا ضد حكم الإسبان المستبد في حرب ضارية لنيل الاستقلال. وكانت الولايات المتحدة قد التزمت، في البدء، موقف المتفرج لكنها كانت تراقب ما يجري باهتمام بالغ. ثم عادت للتدخل المسلَّح وسجَّل جنودها انتصاراً باهراً على الإسبان. ووقِّعت بين الطرفين في ١٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ معاهدة سلَّمت بموجبها إسبانيا كوبا إلى الولايات المتحدة على أن تحتلها احتلالاً مؤقتاً تمهيداً لحصولها على استقلالها. كما تخلت عن جزيرة بورتوريكو وجُوام مقابل تعويضات الحرب وتركت الفيليبين مقابل ٢٠ مليون دولار.

وبعد أن استقرت الولايات المتحدة في الفليبين عقدت كثيراً من الآمال على القيام بتجارة واسعة النطاق مع الصين وكانت معظم الأمم الأوروبية قد استولت على عدد كبير من القواعد البحرية واستأجرت الأراضي في الصين بعد هزيمة اليابان هناك سنة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥. فاحتكرت الولايات المتحدة الأميركية التجارة مع الصين وتفرَّدت في استثمار رؤوس أموالها باستغلال المناجم وإنشاء السكك الحديدية. لكن الصينيين ثاروا في وجه الأجانب سنة ١٩٠٠ واستولوا على المفوضيات الأجنبية في بيننغ فلجأت الولايات المتحدة إلى مقاومة هذه الثورة التي تشكل إخلالاً في سياسة الباب المفتوح التي تتبعها الصين. ودعمتها في ذلك بريطانيا وألمانياً.

في تلك الفترة علا الاحتجاج داخل الولايات المتحدة ضد نظام المحسوبيات، الذي كان بموجبه كل سياسي يوزِّع المناصب الحكومية على أنصاره. واحتج عمال المصانع على ما يعانونه من مظالم فنظموا أولاً «جمعية فرسان العمل» لحماية أنفسهم وتضاعف عدد أعضاء هذه الجماعة منذ تأسَّست سنة ١٨٦٩ حتى بلغ سنة ١٨٨٥ سبعمائة ألف عضو. لكنها انحلَّت سنة ١٩٠٠ وحلَّ محلها اتحاد العمال الأميركيين الذي يضم نقابات قوية من أرباب الحرف والصناعات وأصبح العمال قوة لا يمكن لأي سياسي أن يتجاهلها.

وفي عهد روزفلت، صدر سنة ١٩٠٢ قانون الاستصلاح الذي أعطى للحكومة الحق في إقامة سدود وخزانات كبيرة فتحولت مساحات شاسعة جرداء إلى أرض خضراء صالحة للزراعة. وسنة ١٩١٣ صدر قانون الاحتياط للاتحاد الذي ينظم البنوك والعملة. ونصَّ هذا القانون على إصدار أوراق مالية احتياطية اتحادية لمواجهة مطالب الأعمال والمشاريع الإنتاجية كما نظَّم هذا القانون التجارة الداخلية بين الولايات وحرَّم استخدام الوسائل غير المشروعة في المنافسة. أخيراً صدر سنة ١٩١٥ قانون البحارة الذي نص على تحسين

الاستقلال الأميركي

إعلان يدعو لتحديد ساعات العمل

أحوال البحارة المعيشية. ونصّ قانون تعويض العمل الإتحادي الصادر سنة ١٩١٦ على منح مكافآت مالية للمستخدمين الذين يصابون بعاهات أثناء العمل. ونص قانون آدمس نظاماً يقضي بأن يشتغل عمال السكك الحديدية ثماني ساعات في اليوم.

هكذا بات بإمكان الولايات المتحدة أن تؤدي، عقب الحرب العالمية الأولى دوراً فاعلاً وأن تتحمّل مسؤولياتها كدولة عالمية عظمى وأن تشكل قوة اقتصادية لا يستهان بها. ورغم الأزمات التي عانت منها أصبحت عملتها عالميّة حلّت محل التغطية الذهبية.

وانخفضت، إثر الحرب العالمية الأولى نسبة الهجرة إلى الولايات المتحدة. وحصل انهيار في سوق الأوراق المالية في خريف سنة ١٩٢٩ وتدهورت الحياة الاقتصادية. لكن الحكومة قامت بتوفير تسهيلات سخية من القروض في كافة الميادين. وأصدر الكونغرس قانوناً للإغاثة الزراعية نص على أن تمنح الحكومة إعانات مالية للمزارعين الذين يخصصون جزءاً من أراضيهم لزراعة محاصيل تضمن صيانة التربة وتسهم في تنفيذ الأهداف الزراعية البعيدة المدى. هكذا كفل القانون الجديد منح القروض مقابل المحاصيل الفائضة والتأمين على القمح. كما كفل نظاماً للتخزين يضمن توفير الحبوب بصورة دائمة للأمة وللمزارعين فارتفعت، إثر هذه الإجراءات أسعار المنتوجات الزراعية ولاحت في الأفق تباشير الاستقرار الاقتصادي.

وسنة ١٩٣٥ وافق الكونغرس على قانون العلاقات العمالية القومي الذي نصّ على إنشاء مجلس للعمّال يشرف على حسن سير المساومة الاجتماعية وتم انتخاب مجلس العمّال الذي يضمن لهؤلاء حق اختيار المنظمة التي تمثلهم في تعاملهم مع أصحاب العمل. وعالج قانون التأمين الاجتماعي الصادر في السنة نفسها معاشات فئات عديدة من العمال عند بلوغهم الخامسة والستين على أن يموّل هذا البرنامج من العمّال ومن أصحاب الأعمال فأصبح لكل ولاية نوع من التأمين ضد البطالة. وأدى القحط والجدب الذي تكرّر خلال العقد الرابع من القرن العشرين إلى وضع قانون شامل لضبط الفيضان ونص على إنشاء سلسلة من الخزانات الكبيرة والسدود القوية الضخمة بالإضافة إلى آلاف السدود الصغيرة على الجداول.

في السياسة الخارجية، أدّت التشريعات الحيادية التي سنت تدريجياً خلال الحقبة بين ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ إلى تحريم التجارة بين أميركا وأية دولة من الدول المتحاربة أو منحها القروض المالية. لكن سقوط فرنسا وتعاظم شأن السياسة الدكتاتورية في ألمانيا واليابان وإيطاليا دفع الولايات المتحدة إلى مساعدة الدول الديمقراطية الأوروبية وصدر في سبتمر سنة ١٩٤٠ قانون الخدمة العسكرية الإجبارية لأوّل مرّة في تاريخ أميركا.

وحين انضمت اليابان سنة ١٩٤٠ إلى محور روما برلين أسرعت الولايات المتحدة وفرضت الحظر على شحن المواد الحربية إلى اليابان وحين قامت القوات اليابانية بهجوم بالطائرات على هاواي وميداوي وويك وجرام أعلن الكونغرس في اليوم التالي

كنـــدا

الحرب على اليابان. وطالب الرئيس روزڤلت سنة ١٩٤٢ الأمة الأميركية بإنتاج ستين ألف طائرة بالسنة وخمسة وأربعين ألف دبابة وعشرين ألف مدفع مضاد للطائرات وسفن تجارية تعادل حمولتها ثمانية عشر مليوناً من الأطنان.

وخضع كل نشاط الأمة الأميركية في الزراعة والصناعة والتعدين والتجارة والأعمال والاستثمار والمواصلات وحتى التعليم والثقافة لرقابة جديدة واسعة النطاق. واستسلمت اليابان في ٢ سبتمبر بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي، سنة ١٩٤٥. وأنهت الولايات المتحدة عزلتها وبدأت تتحمّل مسؤولياتها الكاملة في ميدان الشؤون الدولية بانضمامها إلى «الأمم المتحدة». فراحت تهتم بشؤون الدول الأوروبية الاقتصادية الداخلية وأنشأت، إثر أزمة برلين الشرقية والغربية وتوسّع النفوذ السوڤياتي في أوروبا الشرقية والتهديدات التي مارسها الاتحاد السوڤياتي ضد اليونان وتركيا والقلق الذي عمَّ أنحاء أوروبا الغربية، منظمة حلف شمال الأطلسي في أبريل سنة ١٩٤٩ لتنسيق خطوط الدفاع الحربية للدول الأعضاء ضد أي عدوان سوڤياتي محتمل.

وانضمت الولايات المتحدة، سنة ١٩٤٨ إلى إحدى وعشرين دولة من دول أميركا اللاتينية لتكوين منظمة الدولة الأميركية الرامية إلى فض المنازعات بين مجموعة الدول الأميركية بالطرق السلمية وتشجيع التنمية الاقتصادية والاجتماعية في أميركا اللاتينية وتوفير العمل المشترك عند وقوع عدوان على إحداها.

وشغلت القارة الآسيوية جانباً مهماً من اهتمام أميركا في كوريا وڤيتنام وفي منطقة الشرق الأوسط.

كنـــدا

● **لمحة تاريخية:**

اكتشف البَحار «جون كابوت» وهو من «جينوا» الإيطالية ومن بحارة البندقية، كندا سنة ١٤٩٧، بعد أن كلّفه الملك الإنكليزي هنري السابع القيام برحلة استكشاف باتجاه الممر الشمالي ـ الشرقي الذي يقع على المحيط الأطلسي، فوصل كابوت إلى لابرادور سنة ١٤٩٧ يرافقه ابنه سيباستيان الذي شارك والده رحلاته كاملة. لكنه انتقل بعد موت والده سنة ١٤٩٨ إلى خدمة التاج الإسباني فاكتشف ريوُدولابلاتا.

ووفد إلى كندا بعد كابوت، جاك كارتيه الفرنسي وهو بحَّار ولد في سان مالو سنة ١٤٩١ ومات سنة ١٥٥٧ فاستولى على كندا باسم فرنسوا الأول الملك الفرنسي سنة ١٥٥٧ وأبحر عبر نهر سانت لورانس في رحلة ثانية قام بها سنة ١٥٣٥ وهذا ما جعله يستقر نهائياً في كندا بعد سنة ١٥٤١.

بعد ذلك جرى استعمار كندا سنة ١٦٠٨ على يد صاموئيل شابلان الرحَّالة والمستعمر الفرنسي الأصل، الذي ولد حوالي سنة ١٥٦٧ وتوفي سنة ١٦٣٥ وقام بزيارة الأراضي الفرنسية الجديدة، أي كندا سنة ١٦٠٣ وأقنع الملك هنري الخامس بإنشاء مستعمرة هناك، فأسّس كويبك سنة ١٦٠٨ وأصبح قائدها العام سنة ١٦٢٠ ثم حاكمها سنة ١٦٣٣ فأعطى أثناء تسلمه زمام الحكم هناك زخماً جديداً للحركة الاستعمارية الفرنسية الناشئة.

وكان الفرنسيون والنورمنديون خاصة، يفدون إلى الأرض الكندية. فأنشأ ريشليو سنة ١٦٢٧ شركة فرنسا الجديدة أو «تعاونية المئة» وفوّضها حق تدبير شؤون المهاجرين الفرنسيين إلى كندا وتملك الأراضي هناك. وسنة ١٦٦٣ تمَّ ضم الأراضي الكندية المستعمرة إلى أملاك التاج الملكي الفرنسي.

وتوالى توافد المهاجرين الفرنسيين إلى كندا جماعات جماعات، ولكن كان عليهم أن يبقوا على استعداد دائم للتصدي للسلوك العدائي الذي واجههم به سكان كندا الأصليون من الهنود الحمر. ورغم ذلك ما توانى هؤلاء المهاجرون عن متابعة استكشاف المناطق الكندية الداخلية والتوغل فيها.

واستفاد الإنكليز من انشغال لويس الرابع عشر بالحروب والمعارك فشنوا هجوماً على كندا في محاولة للسيطرة

كنـــدا

عليها، فاستولوا على إيكوسيا الجديدة سنة ١٧١٣ وتم الاعتراف لهم بها بعد معاهدة «أو تراخت» وحاول الإنكليز، مرّة جديدة، الاستيلاء على كندا، أثناء حرب السبع سنوات، فتسنى لهم ذلك سنة ١٧٦٣، فإذا بهم يربطون جزر خليج بريتون والبرنس إدوارد بايكوسيا الجديدة. وحدها منطقة كويبك الواقعة في وادي سانت لورانس بقيت صامدة أمام الغزو الإنكليزي، ولكنها سرعان ما أصبحت خاضعة للتاج البريطاني بعد معاهدة جرى التوقيع عليها بين الفرنسيين والإنكليز سنة ١٧٩١.

وكما ذكرنا سابقاً، فقد وفد الأوروبيون فرادى وجماعات إلى الأرض الجديدة، أي إلى أميركا الشمالية، ابتداءً من القرن السادس عشر، وبات نمو المستعمرات واتساع رقعتها أعمق أثراً ممَّا تدل عليه الزيادة في عدد السكان. وشهد القرن الثامن عشر سيلاً جديداً من المهاجرين الأوروبيين الذين اختلفت دوافعهم للتوسع الاستعماري. كما اصطدم الوافدون الجدد بكون الأراضي الساحلية الجيِّدة قد استعمرت من قبل لكنهم ما توانوا ولا تراجعوا بل اندفعوا إلى ما وراء دلتا الأنهار واكتشف التجار المناطق الداخلية وراحوا يروون القصص عن أوديتها الغنية. الأمر الذي حمل شجعان المزارعين على الرحيل إلى البراري مع عائلاتهم سعياً وراء الأراضي الجيدة المعطاء. ثم أخذوا ينشؤون لأنفسهم بيوتاً منعزلة في المساحات التي جرَّدوها من الأشجار

وتولّى المستعمرون أمرهم بأنفسهم ونمت فيهم كراهية للكبت فإذا بهم يتصرفون على هواهم ووفق مزاجهم. وحاولوا منذ البداية الإفادة من الحرية السياسية التي توصل إليها المواطن الإنكليزي واستطاعوا، منذ الأيام الأولى، التمسك بحقوقهم تمسكاً شديداً.

والغابات ورغم كثرة الصعاب والمتاعب التي لاقوها جنوا ثمار النجاح. واستمر المستعمرون يفدون إلى تلك البقاع إلى أن امتلأت الأودية الداخلية.

ولم تكن بريطانيا العظمى حتى سنة ١٧٦٣ قد وضعت سياسة ثابتة لمستعمراتها، بل كانت تكتفي بأن تفرض عليها بأن تمدَّها بالمواد الخام وأن لا تنافسها في الصناعة لكن هذا المبدأ كان يفتقر إلى قوة التنفيذ. وهذا ما كان يدفع البرلمان الإنكليزي والملك إلى محاولة إخضاع النشاط الاقتصادي في المستعمرات للإدارة الإنكليزية بشكل يتوافق مع مصلحة بريطانيا. وعارض أكثرية سكان المستعمرات هذه التبعية، لكن بُعد المسافة المائية بين انكلترا والأرض الجديدة، وقدرها ثلاثة آلاف ميل، هدَّأ من مخاوف سكان المستعمرات.

وكان ملوك انكلترا منشغلين، في تلك الفترة، بالصراعات الداخلية التي نشبت في قلب انكلترا والتي بلغت ذروتها في ثورة البيوريتان، وقبل أن يلتفت البرلمان الإنكليزي ناحية المستعمرات في محاولة لدمجها في إطار سياسة امبراطورية موحَّدة، كانت هذه المستعمرات قد استقام عودها واشتدَّ أزرها وازدهرت بطرقها الخاصة. وقبيل العقد الثاني من القرن الثامن عشر بذلت محاولة لتعديل العلاقات بين المستعمرات وإنكلترا تعديلاً جوهرياً أسفر بنتيجته عن طرد الفرنسيين نهائياً من أميركا الشمالية.

فالبريطانيون كانوا يملأون، في تلك الحقبة، منطقة ساحل الأطلسي ويقيمون قطاعات شاسعة ومزارع منسقة ومدناً كثيرة مزدهرة وكان الفرنسيون يؤسِّسون نظاماً استعمارياً من نوع آخر في وادي سانت لورانس في شرقي كندا، حيث كانوا قد أرسلوا عدداً قليلاً من المستعمرين الذين كانوا بأكثريتهم من المستكشفين والمبشِّرين وتجار الفراء.

وقاوم الإنكليز طويلاً هذا التعدّي والحصار الفرنسيين: فوقعت اشتباكات دامية بين المستعمرين الفرنسيين والإنكليز منذ سنة ١٦١٣.

أهل المستعمرات لم يروا في هذا الحرب إلاّ صراعاً بين إنكلترا وفرنسا من أجل التوسع الامبراطوري. ولم تؤنبهم ضمائرهم عندما اضطرت الحكومة الإنكليزية إلى إرسال قوات نظامية كبيرة العدد لتشارك في معارك الاستعمار. ولم يأسفوا لأن أصحاب الأردية الحمراء من الجيش الإنكليزي قد كسبوا الحرب دون القوات الإقليمية.

كنـــدا

ونشبت حروب منظمة حصلت انكلترا بنتيجتها على عدَّة امتيازات رغم أن الصراع لم يحسم بسبب حفاظ فرنسا على مركز قوي في القارة الأميركية. ودخل هذا الصراع مرحلته النهائية حوالي العقد السادس من القرن الثامن عشر حين أحكم الفرنسيون قبضتهم على وادي المسيسيبي بعد صلح «أكس لاشابيل» سنة ١٧٤٨. ونشط المستعمرون الإنكليز، في الوقت نفسه، بالانتقال عبر جبال الجني Alleghenies وبدأ بذلك السباق للاستيلاء الفعلي على هذا الإقليم.

ولكن رغم قصور المستعمرات عن تأييد الإنكليز، فإن تفوُّق إنكلترا الاستراتيجي وكفاءة قوادها ساعدا على تحقيق النصر التام بعد ثماني سنوات من الصراع. هكذا فتح الإنكليز كندا ووادي المسيسيبي الأعلى فتحاً نهائياً وقضوا على حلم الامبراطورية الفرنسية بترسيخ أقدامها في أميركا الشمالية. وازدادت من جراء ذلك ممتلكات بريطانيا في ما وراء البحار إلى أكثر من الضعف في أميركا الشمالية وحدها وأضيفت إلى الشريط الضيق على الساحل الأطلسي مساحة كندا الشاسعة والمنطقة الواقعة بين نهر المسيسيبي وجبال «الجني» وأصبحت هذه المساحات امبراطورية قائمة بذاتها. وبعد أن كان السكان في المستعمرات الإنكليزية القديمة في أميركا الشمالية من البروتستانت أو الأوروبيين المطبوعين بالطابع الإنكليزي، أصبحت تشمل فرنسيين كاثوليك وهنوداً اعتنقوا المسيحية.

ومع انتهاء مدَّة رئاسة جيفرسون الثانية وتقلُّد جيمس ماديسون هذا المنصب سنة ١٨٠٩ أخذت العلاقات مع بريطانيا تزداد سوءاً واتجهت-كلتا الدولتين سريعاً نحو الحرب، وقدَّم الرئيس للكونغرس تقريراً مفصلاً يتضمَّن ٦٠٥٧ حادث اعتقال ارتكبه الإنكليز ضد المواطنين الأميركيين الذين سخِّروا للعمل في البحرية الإنكليزية ثلاث سنوات. أضيف إلى ذلك أن الذين استوطنوا الأراضي الشمالية الغربية تحمَّلوا وطأة الهجمات التي شنَّها الهنود بتشجيع من الوكلاء البريطانيين في كندا.

هكذا أعلنت أميركا الحرب على بريطانيا سنة ١٨١٢ وبدأ الهجوم بحركة مثلثة لغزو كندا، وكان من المنتظر أن تسفر هذه الحملة عن عملية موفقة ضد مونتريال، لكنها أحبطت وانتهت باحتلال البريطانيين لديترويت. بعد ذلك تركزت الحملة العسكرية حول بحيرة «آيري» سنة ١٨١٣ في ولاية نيويورك وكان الجنرال وليم هنري هاريسون قد زحف بجيشه من جنود الاحتياط والمتطوعين والنظاميين في كنتكي لاسترجاع ديترويت. وفي أقل من شهر، سيطر الأميركيون على الجزء الشمالي من كندا، رغم أن الإنكليز كانوا في نهاية ذلك العام يحتلون بحيرة أونتاريو. ثم انتهت الحرب بعقد معاهدة «غنت» في فبراير سنة ١٨١٥.

وبعد أن استتب الأمر للإنكليز، قسَّموا كندا إلى منطقتين: كندا الشمالية وأغلبية سكانها من البريطانيين، وكندا الجنوبية وأغلبية القاطنين فيها من الفرنسيين. وكان اتفاق الوحدة الذي تمَّ سنة ١٨٤٠ قد وحَّد المنطقتين الكنديتين ثم جرى سنة ١٨٦٧ إنشاء الاتحاد الكندي التابع للكومنولث البريطاني وتمَّ الاعتراف بنظامه الدستوري الذي ما زال سائداً حتى اليوم وأصبح الاتحاد الكندي يضم إلى جانب الولايات الأربع الأساسية: برونزويك الجديدة، أيكوسيا الجديدة، اونتاريو وكويبك وما نيتابو التي انضمت سنة ١٨٧٠ إلى اتحاد الولايات الكندية، وكولومبيا البريطانية التي انضمت سنة ١٨٧١ وجزيرة البرنس إدورد سنة ١٨٧٣ وألبيرتا وساسكاتشوان سنة ١٩٠٥ والأرض الجديدة سنة ١٩٤٩.

وفي القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وبعد أن كان الصراع الفرنسي ـ الإنكليزي قد ولَّى منذ زمن حول إقليم كويبك شهدت المنطقة

جعلت العوامل التاريخية كنداً وخصوصاً مقاطعة كويبك تعتمد لغتين رسميتين هما الفرنسية والإنكليزية. وتشجِّع حكومة تلك المقاطعة الثقافة الفرنسية وتفرض بعض الأحيان استخدامها في القطاعات العامة والمهن الحرة وعالم الأعمال. كما سنَّت قانوناً لرجال الأعمال يشجعهم ويدفعهم لاستخدام هذه اللغة وهم يعتمدون الآن هذا القانون.

كنـــدا

من الحرب العالمية الثانية

سيلاً من المهاجرين الأوروبيين، ومع ذلك حافظت هذه المنطقة على طابعها الفرنسي فنسبة الناطقين باللغة الفرنسية في إقليم كويبك ٨٠٪.

ولأن كندا قدّمت الدعم المادي والبشري للحلفاء في الحرب العالمية الأولى، تمّ الاعتراف بها كدولة مستقلة على الصعيدين السياسي والاقتصادي، وعرفت صناعاتها في ذلك الوقت، التعدينية وبناء السفن والطائرات وإنشاء شبكة المواصلات من سكك حديدية وطرقات واسعة ومجاري نهرية واتصالات سلكية وهاتفية ولاسلكية، قفزة سريعة إلى الأمام وخطت خطوات نحو التصنيع الحديث.

وعلى الصعيد السياسي، حظيت كندا بمقعد مميّز في مفاوضات ڤيرساي نظراً لمساهمتها في الحرب، بقواتها المسلّحة التي حاربت بشجاعة فإذا بها من الدول المميزة في عصبة الأمم وإثر المؤتمر الامبراطوري الإنكليزي الذي عقد في لندن سنة ١٩٢٦، وشاركت فيه أهم دول الكومنولت البريطاني. وبعد التصديق سنة ١٩٣١ على نظام وستمنستر أصبحت كندا دولة تتمتع تماماً باستقلالها الذاتي على صعيد سياستها الداخلية وسياستها الخارجية.

ومرّة ثانية، إثر أزمة ١٩٣٠ الاقتصادية العالمية واندلاع الحرب العالمية الثانية، دفعت كندا قواتها العسكرية إلى المعارك إلى جانب الحلفاء دفاعاً عن الديمقراطيات ضد الدكتاتوريات المتطرفة. وعُدّت قواتها البحرية في المرتبة الثالثة وقواتها الجوية في المرتبة الرابعة بين جيوش الحلفاء. وما زالت كندا تسهم خلال الحقبة الممتدة من الحرب العالمية الثانية حتى اليوم في تقديم المساعدات المادية والتقنية والغذائية للبلدان النامية خاصة إثر الحرب الكورية، حفاظاً على السلام الذي تؤمن به.

سلسلة المعارف الشاملة .ش م 14

الادب

عالم الفنون

الاسرة السعيدة

جمالك سيدتي

الارض والكون

النبات والحيوان

الديانات والفلسفة

الكمبيوتر والانترنيت

حضارات الشعوب الوسطى

حضارات الشعوب القديمة

تاريخ حديث وفنون عسكرية

الطبخ والحلويات حول العالم

الطاقة والتكنولوجيا الحديثة

الفضاء - الاقمار الصناعية - الاتصالات

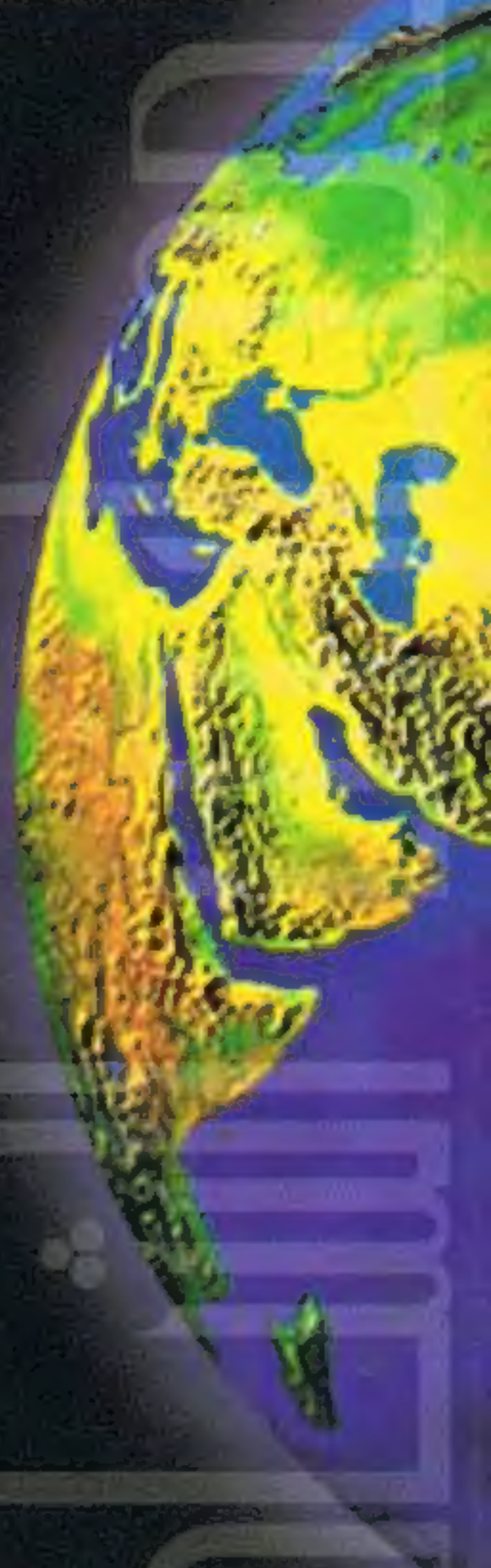

Edito Creps®
CONNAISSANCE GENERALE
TEL: 00 961 3 779777 - FAX: 00 961 1 [illegible]
Millennium

بإمكان زبائن سلسلة المعارف الشاملة ان يجدوا في كافة دول العالم الكتالوج الجديد لـ Edito Creps عبر الانترنت www.editocreps.com.lb